

الكتاب مزود بعدة لوحات تمثل الفنون المغربية المختلفة

مظاهر الحضارة المغربية

عبد العزيز بنعبد الله
خريج كلية الحقوق والآداب
جامعة الجزائر
الطبعة الأولى سنة 1957
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

نشر

دار السامي

للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع

زقة الجزولي رقم 38 صندوق البريد 4010 تليفون 22 - 316
الدار البيضاء

الكتاب مزود بعدة لوحات تمثل الفنون المغربية المختلفة

مضامير الحضارة المغربية

✦ عبد العزيز بن عبد الله ✦
خريج كلية الحقوق والآداب
جامعة الجزائر
الطبعة الأولى سنة 1957
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

نشر

دار السلامي

للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع

زنقة الجزولي رقم 38 صندوق البريد 4010 تليفون 22 - 316
الدار البيضاء

هذه
النسخة
أهدى بها
إلى
أستاذي
سيد
عبد العزيز
بن عبد الله
عربو في
القدر
الفقر ليس
في

2018-9-29

عربي الهسي

كلمة الناشر

بسم الله وبه نستعين

لا يشك احد من قراء العربية ان المغرب قطر عربي وانه قطع في تاريخه مراحل ازدهار انجبت فطاحل رجال العلم والادب والسياسة وان هؤلاء خلفوا ثروة فكرية طائلة كل في ميدانه .

لكن الباحث في الادب العربي يعجز عن استكمال حقيقة هذه الثروة نظرا لانعدام اصولها . ولعل انعدام هذه الاصول راجع الى انعدام وسائل النشر في بلادنا . واذا كان الاستعمار فيما مضى هو الحاجز دون وجود وسائل النشر فما هو الاستعمار قد تقلص ظله من هذه البلاد واصبحنا - والحمد لله - نتمتع باستقلالنا وحریتنا بفضل ملكنا وقائد نهضتنا مولانا محمد الخامس . بذلك اتاحت الفرصة للناشرين لاستخراج مدخرات الانتاج العربي بهذه البلاد .

وها هي « مكتبة ابن خلدون » و « دار السلمي » للطباعة والنشر والتأليف تبرهن عن استعدادها وكفاءتها لتكون خير وسيط بين المؤلفين والقراء . وقد قدمت فيما مضى عدة مؤلفات في شتى الميادين وفي الميدان المدرسي بالخصوص فاظهرت بذلك مقدرتها وجدارتها وها هي اليوم تقدم للقراء الكرام اثنى تحفة تاريخية اخرجت للناس حتى الآن . وهي مقتبسة بهذا العمل بل وفخورة به لان المؤلف من خيرة رجال المغرب العاملين ومن الافذاذ الذين خلقوا للعمل الصالح العام وخدماته الجليلة في ميادين التربية والتعليم والتأليف المدرسي تفنينا عن التعريف به وقد بذلنا مجهودا ماديا وادبيا شاملا في سبيل اخراج هذا الكتاب على الشكل الذي يرضي القارئ الكريم ويروقه وعلى حسب قيمة المؤلف والمؤلف

وان « مكتبة ابن خلدون » و « دار السلمي » لترحبان بكل انتاج فيه فائدة وخير لقراء العربية بهذه البلاد .

فعلى جميع الادباء والمفكرين ان يتقدموا بانتاجهم اليها ونحن كفيلون باخراجه للقراء ، وفق ما يرغبون

والله المسؤول ان يوفقنا ويسدد خطانا ويلهمنا الرشيد ويكلاً مولانا امير المؤمنين برعايته ويحفظ اسرته الكريمة وعلى راسها ولي العهد المحبوب ورئيس اركان القوات الملكية المسلحة الامير الجليل مولانا الحسن

انه سميع مجيب «



المقدمة

لي عظيم الشرف ان اهدي الى عالم الشباب وعنوان العبقريّة ورمز النبوغ
ولي العهد المحبوب وقائد اركان الحرب صاحب السمو الملكي الامير مولاي
الحسن هذا البحث الذي قضيت سنوات عديدة في جمع عناصره وتحقيقها
ووضعها في قالب ارجو ان اكون وفقت في حسن صياغته وعرضه فهو تحقيق
اصيل في بابيه اضطرني جمع اطرافه ولم شعته الى الانكباب على مراجع عدة
بين مطبوع ومخطوط تتكامل نسبيا وتنتج عن الموازنة بين معطياتها صورة لا
ازعم انها كاملة ولا قريبة من الكمال ولكن يمكن ان تعتبر على الاقل خطوة
اولى وحاسمة في هذا السبيل ولن احاول في هذا التقديم الاتيان بوصف مفصل
لبرامج الكتاب ولا لما لاقيته من صعاب فالكتاب يعرب عن نفسه وكل فصل من
فصوله ينم تلقائيا عن الاصطبار الرصين الذي كويد خلال عقد من السنين
لتحقيق مناطه وتهذيب حواشيه .

وفي وسع طلبة اللغة العربية ان يعتبروا هذا البحث المتواضع
مدخلا لتاريخ المغرب لانه عبارة عن فذلكة جامعة لمختلف مظاهر الحضارة
المغربية اذ كثير من العناصر التي مررت بها لاما يمكن ان تكون موضوع
بحث خاص قائم بذاته .

وعسى ان اكون قد اسهمت في القاء بعض الضوء على مناحي مهمة
من تاريخنا المجيد وان نستخلص جميعا من الفبش الذي يتجلى في
بعض الجوانب عبرة صالحة ودرسا مفيدا في الجهاد الوطني من اجل
مستقبل المغرب الجديد

عبد العزيز بنعبد الله

فاتح يناير 1957

شخصية المغرب الجغرافية

ان شخصية المغرب الجغرافية مختلفة المظاهر والخواص ففي الحيز المغربي الذي لا تتجاوز مساحته نصف مليون كيلومتر مربع تتصادم تأثيرات متعاكسة اذ وجود المغرب في الركن الشمالي الغربي للقارة الافريقية يخوله وضعية ممتازة بين المتوسط والمحيط ولكن توغل تخومه في قلب الصحراء كان من شأنه ان يخضعه لتأثيرات طقس قاس لولا ان بحدود هذه البلاد محيطا تنعشها رطوبته وفي خلالها انهارا تنقع الغلة .

وهكذا تتجاذب المغرب عوامل الطقس البري والبحري والصحراوي والمناخ المعتدل ولكن بالرغم عن تشعب مميزاته فشخصيته القوية تتوفر على خواص توجد بين سهوله وجباله وهضابه .

على ان هذه المظاهر المتضاربة نفسها لا يمكن ان تكتمل بدونها شخصية جغرافية ممتازة لانها هي في ذاتها متكاملة ويذكر الجيولوجيون ان الناحية التي بين الجنوب والمقاطعات الشمالية كانت مياه البحر تصل اليها في فروع مستطيلة هي مضيق جنوب الريف وهي اليوم عبارة عن غور يتوسطه ممر تازا الذي يشطر الناحية الى حوضين هما حوض سبو وسهول الناحية الوسطى لنهر الملوية .

وبسبب هذه الوضعية الجيولوجية تتوازي في المغرب سلسلة جبال شمالية في الريف محاذية للمتوسط مع سلسلة اخرى تحاذي الصحراء وهي الاطلس وبين هذه وتلك ناحية وسطى تتلاحق فيها هضاب سامقة وتتخلل كل هذا سلسلة ثلاثية من السهول : سهول سبو وسهول المحيط الاطلسي والسهول الداخلية الواقعة في سفوح الاطلس .

والغريب ان كل ناحية من هذه النواحي الاساسية تتوافر فيها مظاهر التصادم ولنضرب لك مثلا بالريف فهذا اللفظ يطلق على مجموعة الجبال المحاذية للمتوسط من مضيق جبل طارق الى الملوية والممتدة في الجنوب الى الورغة ويدخل علماء الجيولوجيا في عداد جبال الريف كلا من زلاغ وزرهون الواقعتين في جنوبي سهول سبو .

والريف في عرف المفاربة اذا اطلق ينصرف للقسم الشرقي من هذه الجبال بينما يسمى القسم الغربي بجباله وهذا القسم الاخير يتفتح مباشرة لرياح المحيط ومن ذلك وفرة الامطار فيه وبجنوب السلسلة الجبلية تمتد ناحية وزان وبني زروال حيث تكثر جبال متقطعة وحشية المنظر تتخللها اودية وهذه المعاقل الطبيعية هي التي دارت بين جنباتها حرب الريف والامطار التي هي في جهة المتوسط اقل منها في جهة المحيط تزداد قلة من الغرب الى الشرق فتخف وطأة تأثيرات المحيط وتنخفض قمم الجبال التي لا يتجاوز علوها ١٥٠٠ متر بينما تبلغ في الغرب ما يقرب من ٢٥٠٠ متر ويزعم الجيولوجيون ان ممرا بحريا كان يفصل القسم الغربي الذي هو اشباه بجبال الالب الاروبية عن القسم الشرقي .

تطور اسماء افريقيا الشمالية

في التاريخ

ذكر اندري جوليان في (تاريخ افريقيا الشمالية) ان الافريقيين هم الذين سموا بليبيا الجزء الشمالي من افريقية الذي كان يسكنه البيض كمقابل للصحراء التي كان يسكنها الاحباش السود ثم سمي الرومان بافريقية القسم الشمالي الشرقي من تونس وبعد ذلك اصبحت لفظتا افريقيا وليبيا تعنيان القارة بكاملها وقد اطلق العرب اسم جزيرة المغرب على جميع الاقطار الواقعة غربي مصر لا سيما منها المغرب الاقصى ثم جاءت القرون الوسطى والعصور الحديثة فعرفت هذه البلاد ببربريا وفي القرن التاسع عشر اختلق الجغرافيون لفظة (افريقية الصغرى) لتمييز القطر نفسه عن القارة .

ومستند تسمية اليونانيين لافريقيا الشمالية بليبيا هو اسم اللوبو وهو شعب كان يعيش بين خليج السيرت والنيل ثم جاء القرطاجنيون والبرانيون فاستعملوا نفس الاصطلاح ولكن الرومانيين اطلقوا لفظة المور على مجموع سكان ببربريا بعد ان كان الاسم مقصورا على سكان المغرب الشمالي .

ولعل السبب في تسمية الاقطار الواقعة غربي مصر بجزيرة المغرب ان افريقيا لم تفصل عن اروبا لتكون جزيرة على حدة الا في عصور ما قبل التاريخ وقد ذكر صاحب الاستبصار وصاحب النفح انه كانت بين المغرب والانديلس قنطرة تمر عليها الخيول والدواب والناس .



نماذج الزينة الوطنية

المغرب في فجر التاريخ

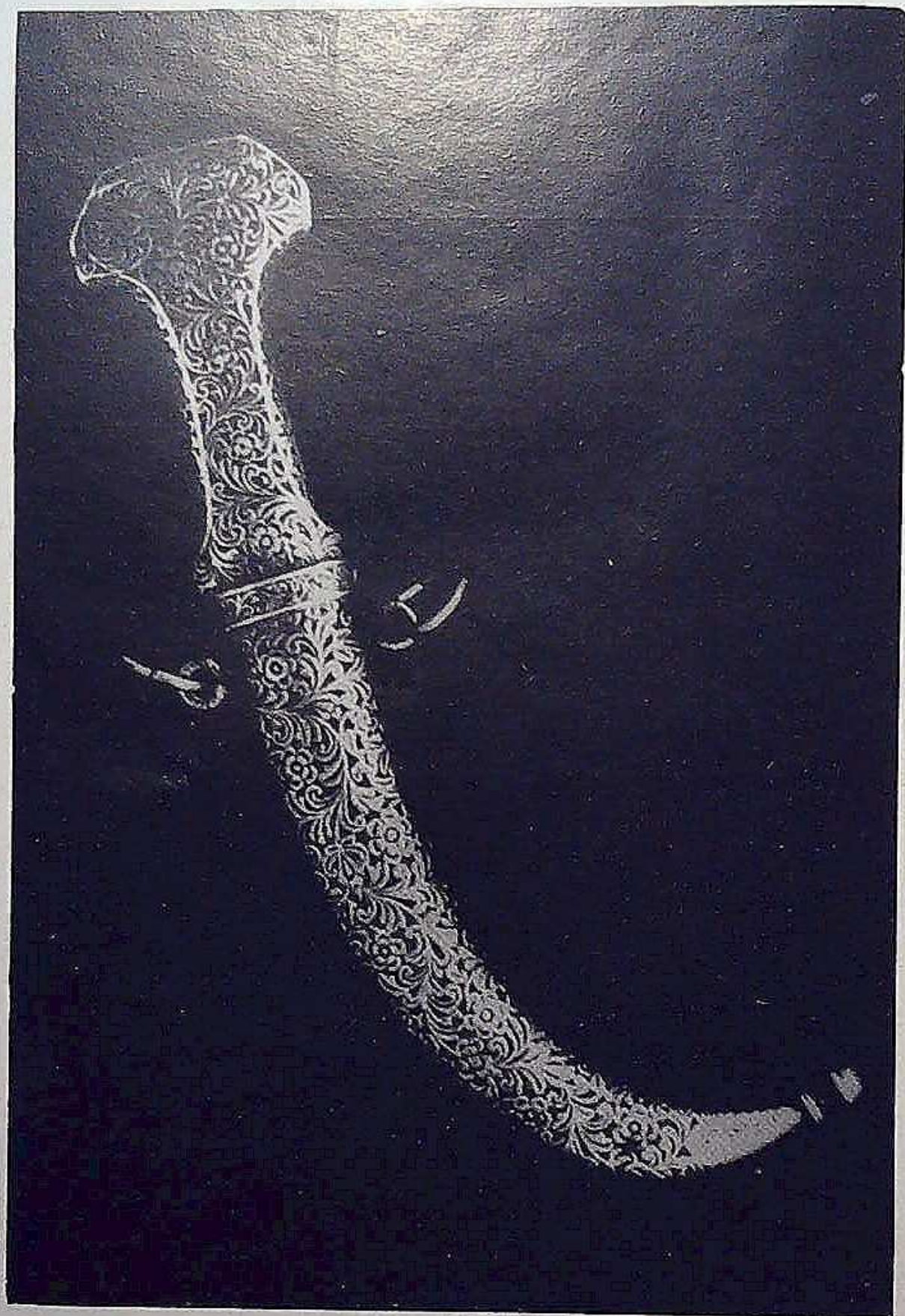


شاهد الانسان الذي عاش في اوائل العصر الجيولوجي الرابع ثلوجا مستديمة ونفثات بركانية قوية في قمم الاطلس المغربي وكانت الامطار اذ ذاك تنهمر بعنف فتطفح بمياهها وديان اضخم مسيلا من وديان اليوم والاودية التي جفت جنباتها اليوم كانت مسربا لانهار كبرى لم تكن تستطيع الانصباب في البحر ويدل دروس هذه الوديان على ان ارض المغرب لحقها جفاف تدريجي .

وقد انتشرت في المغرب الشرقي وكذلك في اسبانيا والجزائر صناعة من ابرز مميزاتها دقة الآلات وصغر حجمها .

ولم يعرف المغرب على ما يلوح عصور النحاس والبرونز والحديد لان هذه المعادن دخلت اليه بواسطة مبادلات تجارية لا بواسطة غزوات استعمارية وكانت اسبانيا في عصور ما قبل التاريخ ميدانا انتقاليا بين افريقيا وفرنسا من حيث الطبيعة والمناخ وكان مضيق جبل طارق مفتوحا منذ اوائل العصر الجيولوجي الرابع حيث كانت وسائل المواصلات بين اوروبا وافريقيا بدائية بسيطة وبذلك يكون المغرب قد لعب دورا هاما اذ ذاك في تنقل الشعوب والحضارات .

وقد خلف لنا هذا العصر اثارا تعرف في الاوساط الافريقية بالحجارات المكتوبة وهي كثيرة على الخصوص في الاطلس الصحراوي بين جلفا وكولوم بشار .



خنجر من فضة وهو انموذج لما كان يتقلده أهل الجنوب بالخصوص

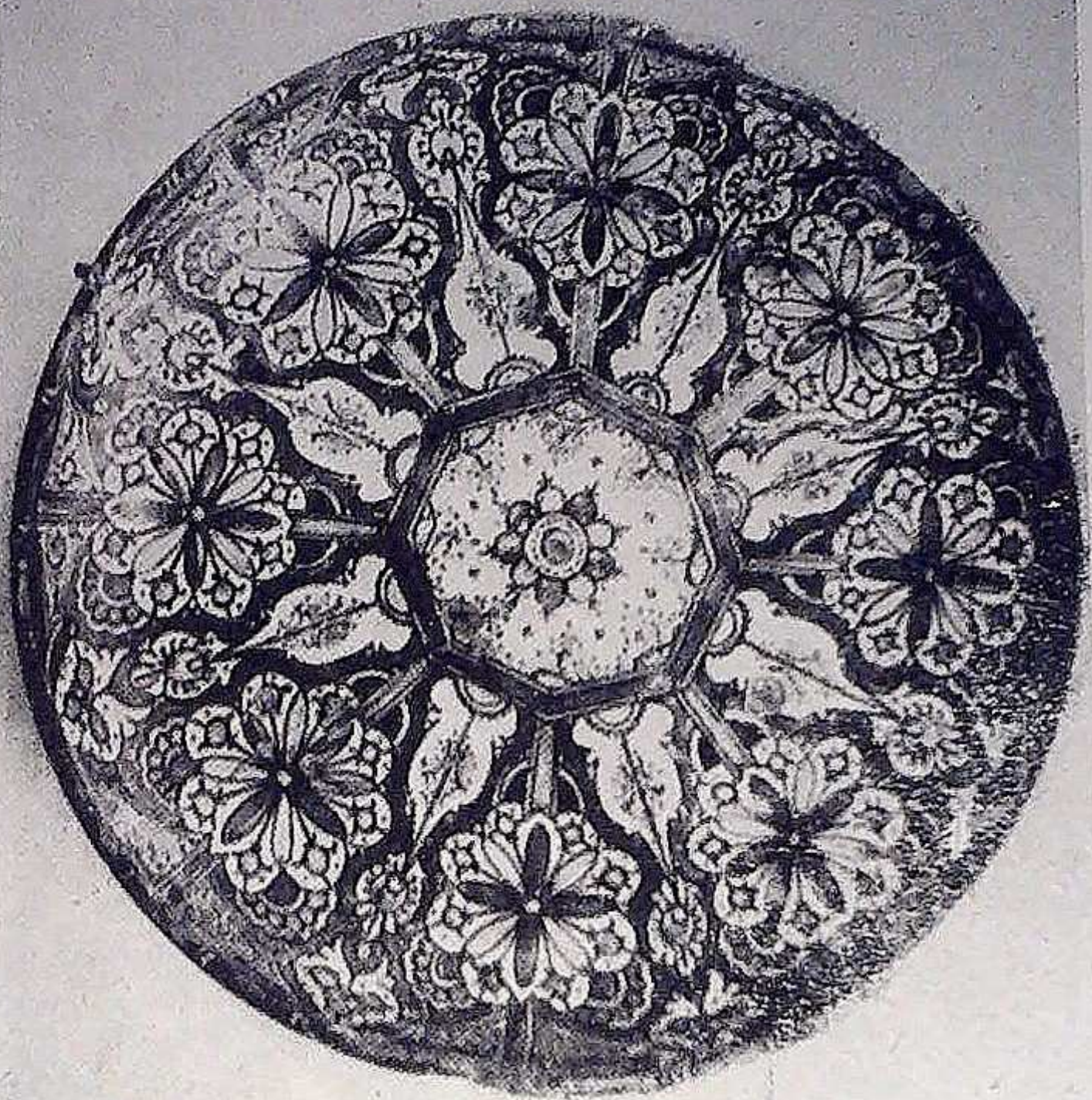
ومعلوم ان في العصر الحجري ظهرت البوادر الفنية الاولى حيث بدأ الانسان ينقش على الحجر بل يصور على جدران المغاور والكهوف حيوانات بأسلوب جريء ترسم بعض ملامحه في طرائق رجال الفن الحديث وقد ترك العصر الجيولوجي الرابع في كثير من اقطار العالم دمي بديعة شهد كثير من العلماء انها نماذج صنعها اصحابها خدمة للفن .

واول ما استعمل الانسان النحاس والبرونز في الشرق ومنه انتقل هذان المعدنان الى اوروبا حيث بدأ الناس حوالي سنة 2 000 قبل الميلاد يقيمون هياكل من النحاس وبفضل تدفق البرونز على اوروبا تطورت الصناعات الحديدية في اسبانيا وبوهيميا حتى جاء الرعاة الشماليون ففقدوا على هذه الحضارة البدائية ثم تدفق حديد الشرق على المغرب فعجل بانحلال الحضارات البدائية وكان الحديد مستعملا في مصر حوالي عام 1 100 ق م ثم انتشر في شواطئ المتوسط حوالي سنة 900 ق م .

وتمتاز الحيوانات المغربية بكونها لم يلحقها تغيير عميق منذ عصور ما قبل التاريخ الى الآن كما تدل على ذلك شكلية الهياكل التي وقع العثور عليها الا انه كان من جملة هذه الحيوانات الفيل الذي لم تدرس اعلامه من المغرب الا بعد تسرب الحضارة الرومانية الى هذه الربوع .

ويظهر من الحجارات المكتوبة ان المغرب كان فيه اذ ذاك سباع وضباع وزرافات وغزلان ونعامات وحيوانات داجنة وثعالب وهلايف كما كان سكانه يلتحفون جلود الحيوان ويستعملون السهام والدركات ويتحلون بالعقود والاسورة .

ويوجد في بلاد زعير انواع من الحيوان عرف بالمغرب منذ عهد الرومان واصل هذه الحيوانات من نواحي دائرة الانقلاب الافريقية ومن الحيوانات التي لوحظ وجودها في بعض نواحي الصحراء التمساح .



((صحن)) خزفي للكسكس في شكله العصري



صور لمختلف الحلي والمصوغات

وقد كان الفيل يعيش قبل اليوم في قطمان متوافرة بجبال الاطلس وهذا امر اتفق علماء الطبيعة على صحته ويحدثنا التاريخ عن فيلة المغرب في عهد القرطاجنيين وهذا النوع من الفيل هو المعروف عند العلماء بالفيل الافريقي الذي وقع العثور على بقايا عظامه واسنانه ولا يوجد على وجه البسيطة الا نوعان اثنان : الفيل الافريقي والفيل الهندي ومن النوع الاول ما عرف بالمغرب في اول القرن الحادي عشر الهجري حيث جلب المنصور السعدي بعد فتح السودان كمية من الفيل دخلت الى فاس عام 1007 الذي سمي بعام الفيل وقد حدثنا المؤرخ بلين (Pline) ان الفيل كان موجودا باحوار مدينة سلا في اول التاريخ الميلادي وكذلك في ناحية طنجة ووادي كير وذكر غيره ان العاج من منتجات السهول المغربية ولا تزال الى الآن صور افيال مرتسمة فوق الصخور لا سيما في جبل عمور .

وكان ارسطو وهو من علماء الطبيعة يتحدث عن هذا العلم من خلال الفلسفة وقد استشهد على كروية الارض بانتشار المواقع التي يوجد بها الفيل لان هذا النوع من الحيوان لا يوجد الا بطرفي المعمور وهما الهند واعمدة هرقل (اي مضيق جبل طارق .)

وليس بغريب وجود هذه الانواع من الحيوان بالمغرب لان افريقيا معروفة منذ فجر التاريخ بانها مهد الفيلة والسباع والضباع والنعام .

وقد اشتهرت السلالة البشرية في افريقيا بالمتانة والمناعة في الصحة والهيكل الجثماني الذي لم يكن يقهره على حد تعبير المؤرخ ساليوت (Salluot) الا ثلاثة اشياء : الهرم والحرب والحيوانات الضارية ومن افريقيا كان الرومانيون يجلبون الحيوانات لاستخدامها في المسارح وقد انحصرت صادرات نوميديا (اي الجزائر وما جاورها شمالا) في الضواري والمرمر وكان المغرب اخصب عرين لهذه الحيوانات التي لم يظهر من بينها الجمل الا اواخر الحكم الروماني .

الحياة الاجتماعية بالمغرب

في العصور الاولى

كان المغرب في تاريخه القديم يعج بالحيوانات المفترسة فكان سكانه يضطرون الى مطاردة هذه الحيوانات لابعادها عن مراكز استيطانهم ثم صاروا يصطادون هذه الوحوش اما لاستئصال شافتها واما لاستخدامها في الالعاب وحتى في الوقت الذي عرف المغاربة الفلاحة لم ينقطعوا عن تربية البهائم من بقر وغنم وافراس وماعرز فكان البعض يسكن منازل قارة والبعض الآخر ينتقل في الصيف الى الجبال حيث يكثُر العشب ويتوافر الكَلأ ، ثم ينزل في الشتاء الى السهول فرارا من ثلوج القمم ولم تتطور الفلاحة في الحقيقة الا في عهد الزعيم البربري الاكبر ماسينيسا في القرن الثاني قبل الميلاد .

وقد احتفظت القبائل البدوية بملكية الاراضي على شكل ملكية الجماعة اليوم وكانت بين السكان اشتراكية فلاحية اي ان الجماعة كانت توزع غلل العمل المشترك على الجميع او توزع الاراضي نفسها على العائلات وفي هذه العصور عرف المغاربة الملكية الفردية .

اما شكلية المسكن فان الكهوف والمغاور التي هي عبارة عن غرف منحوتة في النجود لم تكن تصلح للرحل الكثيري التنقل بقطعانهم فلذلك كانوا يآوون الى مساكن متحركة ينقلون اطرافها معهم على ظهر عربات تجرها البهائم بينما كان القارون يسكنون (النوايل) او الاكواخ المبنية من الطوب .

ثم صار الناس يقيمون ما يعرف (بالقصور) اي معاقل تسند حمايتها لرجال مسلحين او ابراجا تبنى على اطراف الجبال بمستودعات الذخيرة ومطامير القموح .

ومنذ عصر ما قبل التاريخ تجمع الافارقة في مداشر قوامها نوايل
واكواخ مبنية في اماكن توفرت فيها بعض شروط الراحة بفضل نشاط
العاملين اما المدن فلم يشرع في اقامتها الا في عهد الفينيقيين .

وكان المغاربة معروفين بمناعة البنية وقوة الجسم وطول التعمير لانهم
كانوا نباتيين فكان الفلاح ياكل الكسكس والرعاة يكتفون بالالبان عن اللحوم
ولم يكن الجميع يشربون سوى الماء القراح وكانت طرائد الصيد والحلزون
والعسل من المأكولات المبتدلة .

وكانت ثيابهم في الاول مخيطات تستر العورة ثم جلود الحيوان
الواقية من البرد ثم الجبة الصوفية ثم اكسية اشبه بالبرانس وكانت على
رؤوس معظمهم اكاليل من الريش .

اما سلاحهم فكان اولا الحجارة في العهد الحجري - الذي امتد طويلا في
افريقيا حيث لم يعرف الناس منذ الاول معادن الحديد والبرونز والنحاس -
ثم الحراب فالقوس فالخناجر وكانت درقات الدفاع مصنوعة من جلد الفيلة
الذي كان ماء المطر يفسده .

وكان رجل عصر ما قبل التاريخ يصنع الات واسلحة وكان ينقش اولا
بالاظافر ثم رؤوس الحجارة ثم اطراف العظام الحادة ثم اسنان اشبه باسنان
المناشير وعلاوة على صنع انواع الجواهر كان يرسم على الحجارة صورا تمثل
بعض مواقف حياته اليومية ولا تزال آثار هذه الحجارة المكتوبة ماثلة للعيان الى
اليوم وقد كان بعضها مكتوبا باللغة الحميرية .

وكانوا يتحلون - رجالا ونساء - بالاسورة والعقود ويتميز الذكور باقراط
الاذان والنساء بالخلاخل وكانت الاواني كلها خزفية والمرأة فنانة تتولى نقش
هذه الاواني بنفسها كما تتولى نسج الزرابي والفن البربري يستمد من
الاشكال الهندسية لا من صور الطبيعة فقلما يستعمل الاقواس والحنايا وانما

هي خطوط وتعاريج هندسية ويرجع هذا الفن الهندسي ليهود غابرة ولعله يخفي في مظهره البسيط صورا شتى تتمثل فيها مراحل التطور وقد وصف أندري جوليان اصحاب هذا الفن بالحيوية الدافقة لانهم صمدوا باصالتهم الفنية في وجه التأثيرات الاسبانية .

اما الموتى فانهم كانوا يدفنون في عصر ما قبل التاريخ في مغاور طبيعية ثم صاروا يوضعون في كهوف مربعة او مستطيلة تنحت في حجارة الجبال وكانت هذه الكهوف اشبه بمساكن تحشر فيها جثث متعددة بعد ثنيها وكسر عظامها ولكن ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد صار بعض المغاربة يحذون على ما يلوح حذو القرطاجنيين واليونانيين في احراق موتاهم ومنذ القرن الثالث وعادة صبغ الموتى بالاصباغ المختلفة موجودة وكانت حليهم واثاثهم تدفن معهم .

وتدل وفرة الاثاث والاسلحة فيما قبل التاريخ على ان المغاربة كانت لهم حياة اجتماعية منذ اعرق الاعصار ولم يكن نظام الانتساب الابوي يختلف عنه اليوم وكذلك عادة تعدد الزوجات اما ما اشاعه بعض المؤرخين من شيوعية المرأة بين كثير من الرجال في بعض القبائل الشرقية فقد فنده اندري جوليان في تاريخه لافريقيا الشمالية .

وكان حق الاشراف على العائلة يتمتع به قيادومها لا الابن الاكبر خلافا لما كان عليه الامر في كثير من اقطار اوربا وهذه العادة معروفة عند الوندال وكذلك في نظام وراثه العرش البيلكي اليوم .

وفوق نظام العائلة يوجد نظام المدشر الذي يقيمه الفلاحون القارون للتحصن ضد القوم الرحل وكانت هذه المداشر عبارة عن جمهوريات صغيرة لها مجلس اشبه بمجلس الجماعة اليوم في الحياة العرفية ولم تكن القبيلة تختار لنفسها رئيسا الا عند ما تشب حرب فاذا ما صادف هذا الرئيس التوفيق سعى في تملك السلطة هو وبنوه وكانت هذه القبائل تنهار او تنقلص

او تتسع حسب مصائر الحروب فكان القائد القوي يشرف بعض الاحيان على قبائل مختلفة .

وكانت اعراف وعادات وانظمة اشبه بهذه سائدة في باقي شواطئ المتوسط غير ان كثيرا من شعوب المتوسط انفعلوا للتاثيرات الخارجية بينما ظل المغاربة على نظامهم القديم قرونا متطاولة فكان احتلال الاجانب للمغرب يمر غالبا دون ان يترك اثرا ادبيا في نفوس القبائل المغربية وقد خلفت الحضارة القرطاجنية بعض التاثيرات ولكن الفتح الاسلامي هو الذي استطاع وحده بفضل عوامله الروحية سبر الاغوار وقلب جوهر الاوضاع وطبع عناصر هذا الشعب التي كانت متفرقة بطابع الوحدة الدينية والفكرية .

وقد نشر معهد مولاي الحسن بتطوان كتابا حول سلالات شمال افريقيا وهو عبارة عن محاضرة كان القاها م خوليو الاستاذ في جامعة مدريد ورئيس قسم دراسة الانسان والسلالات بالمجلس الاعلى للابحاث العلمية باسبانيا .

تحدث المحاضر اولا عن الصلة الوثيقة التي تربط شعب المغرب بشعب شبه الجزيرة الايبيرية (اي اسبانيا والبرتغال) ثم حل العلاقات القائمة بين الانسان والمحيط الطبيعي الذي يعيش فيه فذكر ان توزيع المجتمعات البشرية على ظهر البسيطة يجري تبعا للمناخ والمقدرات الاقتصادية وكذلك نوع الحياة وشكلية المساكن تتغير حسب طبيعة الموقع الجغرافي ووفرة المياه او قلتها على ان الثقافة نفسها يمكن ان تعتبر نتيجة لمجهود انساني يرمي الى الحصول على ما لم تقدمه الطبيعة له عفوا ثم ذكر ان هنالك عاملين اخرين يساهمان في تقليص ظل العمران في ناحية من النواحي وهذا يقع عند بعض الشعوب التي تهجر مواطنها فرارا من الارواح الشريرة او تحت ضغط العشائر المعتدية وقد تسببت الحروب بالمغرب في تنقلات واسعة قبل الاسلام وهنا تخلص الى نوع الثقافة الاسطورية المنتشرة في افريقيا الشمالية والى بعض الخصائص الاجتماعية فلاحظ ان المجتمع المغربي لا يستند الى

رتب ودرجات حسب السن وان حفلة الختان هي الحفلة الوحيدة التي يكون لها بروز وامتياز في حياة المرء وبعد ما ذكر ان الختان يقع بالمغرب قبل السابعة لاحظ انه الختان الحقيقي عند الشعوب الطوطميكية ومعناه شروع الفتى في حياة النكاح بواسطة ازالة القلفة العائق الحقيقي او الرمزي ثم افاض في محاولة حل الرموز التي تشير اليها بعض اشكال «الوشم» عند المغاربة واستند في هذا الحل الى مقارنات مع الثقافة الكلدانية الاشورية التي انبجست منها عدة تيارات في مختلف بلدان الشمال الافريقي كعبادة القوى الطبيعية لانوار الشمس والقمر والنجوم والرمز لهذه القوى ببعض اشكال الوشم وقد انتقلت عبادة الشمس من مصر مباشرة الى المغرب فتاصلت بقوة وهذا يدل حسب تعبير المحاضر على ان عبادة الشمس هي التي اعدت الباطن الديني لشعوب الشمال الافريقي الى هنا سار جناب المحاضر في تحليله على طريقة علمية قد يتخللها جنوح عارض الى الخيال كزعمه ان حفلة الختان رمز لشروع الفتى في حياة النكاح فيماذا يؤول حضرته اذن عملية الختان التي تجري يوم سابع الولادة عند كثير من الجماعات البشرية ؟ فهل يتاهل الرضيع للنكاح منذ اسبوعه الاول ؟

ولكن الاستاذ لا يلبث ان يجمع به الخيال عند ما يتعرض لتعليل بعض الظواهر او تحليل مصادر بعض العادات فقد زعم ان استعمال طائفة الحمادشة للفأس وضرب رؤوسهم به هو من بقايا عبادة الشمس لان الفأس يرمز الى الاشعة التي يرسلها الكوكب ولا نأخذ على الاستاذ ضربه صفحا عن التأويلات التاريخية التي تشرح بها بعض المصادر العربية هذه الظاهرة الوحشية عند اتباع سيدي علي بن حمدوش فله الحق في عدم قبولها اذا هي لم تحظ برضاه ولكننا نأخذ عليه امعانه في التأويل البعيد فاذا كان هذا الزعم صحيحا فلماذا انقطعت في المغرب حلقات عبادة الشمس حتى ظهر سيدي علي بن حمدوش؟ على ان المستعمل عند الحمادشة ليس هو الفأس وانما هو الشاقور ثم تطرق الى العزائم فقال (ومن اشد العزائم سلطة في المغرب عزيمة القرويين بفأس

التي حسب الاسطورة جيء بها من الفانج وهي كناية عن عصفور من ذهب في منقاره عقرب يصون الجامع من الفيران الخ .

ولسنا في حاجة الى ان نؤكد ان في هذا تشويها مقصودا يراد به تصوير المغرب في ابشع مظهر والخط من عقلية المغاربة لا فرق فيهم بين الرعاع وعلماء مؤسسات سامية كالقرويين واغرب من هذا ما يسمى اليه جناب المحاضر في ثنايا بحثه من ربط ابسط المظاهر في الحياة الاجتماعية المغربية باصول وثنية محاولا ابراز طفيان الروح الوثنية على الروح الاسلامية فاذا رسم البرابرة شكلا هندسيا على اجسادهم تتبع خطوطه ومنعرجاته ليصعد به الى اصل وثني متذرعا بالاساليب المفتعلة وبعض المستشرقين الذين تحدوهم مصالح معلومة في الاقطار المستعمرة لا يتورعون عن التعلق باوهى الاسباب لاختلاق اساطير وتاويلات جد ضعيفة قصد تبرير سياسة التفرقة التي ينهاجونها - لفرض - ازاء العناصر المتساكنة ومنهج التعميم بدون تراث ولا استقراء ظاهرة بارزة في اسلوب الغربيين الا انها ابرز عند بعض المستشرقين من جنس اللاتين وقد حشر جناب المحاضر امثلة للتدليل على استمرار وجود بقايا الوثنية في الاوساط المغربية لا ينفصح لنا مجال تتبعها وتفنيدها ونحن لا ننكر ان الشعوب قد تظل في نفوسها روااسب هي خلاصة ما توارثته سلالاتها منذ اعرق العصور ونعتقد ان الشعوب الاسلامية تسربت اليها تحت تأثيرات مختلفة قديمة وحديثة عناصر دخيلة افسدت رواء الاسلام ونصاعة الحنيفية السمحة ولكننا نمج ظاهرة الافتعال في بعض التاويلات التي لا تقوم للنقد العلمي الرصين .

قال جناب المحاضر (. . . اما في الشرق فيعد سليمان من اعظم الساحرين) وقال (وكما ان سليمان في الشرق سيد الجان فمولاي عبد القادر الجيلاني سيدها في الغرب) وقال (ان من بين المدافن التي تصنع للاولياء المسلمين في المغرب المدفن المسمى بالحوش وهو ضريح بسيط مكون من دائرة من الحجارة تجدد قبر الشخص الذي يقدسه الشعب ان هذه

البحر الابيض المتوسط

الافقيص

البحر المتوسط

البحر الاسود

نهر الذهب المفقود

الستردان المغربي

السنغال

البحر الجنوبي

أرج البحر
أرج الشخ

السانية المراء

شار

دوان

سنكيط

ادرار

الطار

الكنوج

المسج

بوزنيت

سوردة

سان لوى



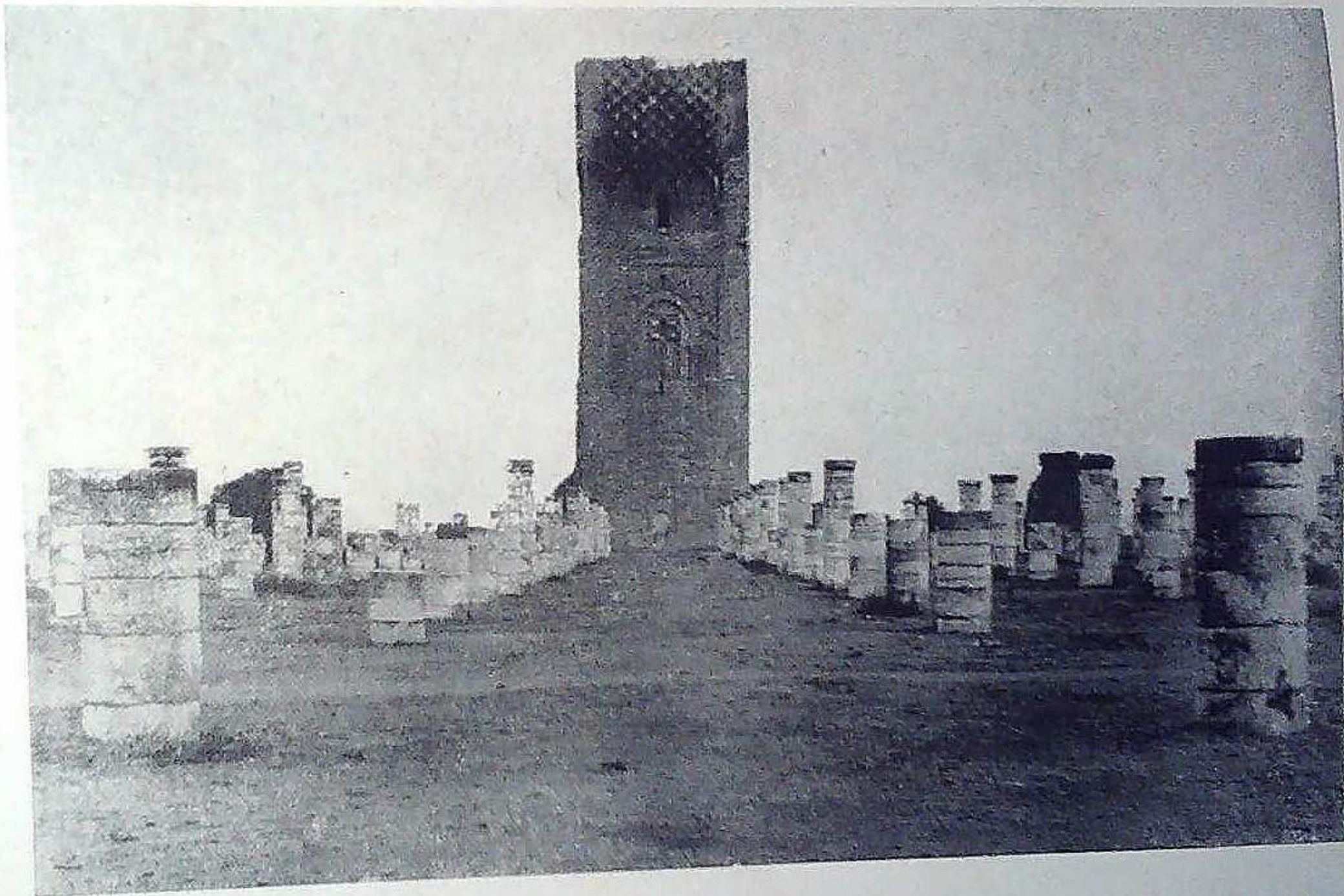
ءامنية من خرف بعد ان تطور نقشها في مختلف العصور

الاهمية التي تعطى في المغرب للحجارة كعامل رئيسي لهي من اقدم المخلقات بالنسبة لمعتقدات شمالي افريقيا) الى ان قال (. . . وفي قضبان حديدنا فذات اشهر الزوايا الاسلامية تعلق الاحجار ملفوفة بقطع من الثوب . . . والدواء المعتاد استعماله ضد الجنون في قبيلة بني يطيفت كذلك يقوم على ان تؤخذ سبعة احجار من سبع طرق مختلفة)

ولو كنت مكان جناب المحاضر وقدر لي ان استسلم لخيالي لفكرت على الاقل في مقارنة ذلك بسبع الحصيات التي يرمج بها الشيطان من طرف الحجيج ولاكدت ان جنس الحجارة لا اهمية له في الموضوع وانما المقصود آلة الرجم .

اما فيما يخص النعال التي تزين الابواب المغربية والتي يزعم حضرة الاستاذ ان الفرض منها هو دفع الارواح الشريرة فلو كنت مكانه ايضا لقلت انها مظهر للتبرك بصورة النعل النبوي الذي هو من الاثار المقدسة التي خلفها الرسول والتي لا يزال عندنا بفاس نعل لبسه الرسول وهو الان بيد العائلة الطاهرية وقد اغرقت في الضحك عند ما رايت المحاضر يحاول الاستدلال على ان (عيون المرأة اشد مفعولا من عيون الرجل وهذا من الاسباب التي تحدد لوضع القناع على النساء لتلافي سحرهن) .

ويريد حضرته ان يستدل على قدسية الماء عند المغاربة بعيد العنصرة او عيد الماء وقد نسي حضرته ان هذه العادة جاءت الى المغرب من الاندلس ايام الامويين وانها انتقلت كذلك من اسبانيا الى بعض بلاد امريكا اللاتينية كالارجنتين وانها عيد فلاحي يرمز فيه لاهم مقومات الفلاحة وهو الماء فيتراش الناس به تيمنا بوفرة الامطار ولنفرض ان الاصل في هذا العيد هو تقديس الماء وعبادته فان المغاربة الذين اقتبسوا هذه العادة من الاسبان انما اخذوها على انها مهرجان بريء من المهرجانات الفلاحية ويدعم الاستاذ دعوى قدسية الماء بان الماء في سائر الاساطير الشرقية يمثل الحياة ونحن



جامع حسان بالرباط

ننبه الاستاذ الى ان هذه حقيقة طبيعية لا علاقة لها بالاساطير والخرفات
وقد ورد في القرءان (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فكون الماء مصدر الحياة
قضية بسيطة لا تستوجب هذه الهالة من الغموض الاسطوري .

وقد ختم البحث (بعيشة قنديشة) التي وصفها الاستاذ بانها (امرأة
جميلة تغوي المارين الذكور المنفردين كلما التقت بهم في اماكن بعيدة بدافع
شهوانيتها) ثم ذكر انه توجد عدة اسباب تسمح بان يفترض ان عيشة
قنديشة من مخلفات الآهة الحب الفينيقية ولكن التعليل الذي ساقه المحاضر
لا يختلف في الوهي والوهن عن سابقيه .

قريبا تصدر
دار السلمي ومكتبة ابن خلدون

كتاب معلم الكبار لمحاربة الامية تأليف محمد بن حدو ترقبوا
صدوره الاول واطلبوه من سائر المكاتب بالمغرب

عوامل الحياة في الاطلس

يشغل الاطلس مساحة شاسعة من التراب المغربي ويمتد تأثيره بصورة غير مباشرة الى ما وراء المنطقة الجبلية ومن الصعب حصر حدود هذه الجبال وقد اصطلح على تقسيمها الى ثلاث سلاسل :

(1) - الاطلس الاكبر الذي يمتد من ساحل المحيط الى الهضاب الواقعة جنوبي المغرب الشرقي .

(2) - الاطلس الاوسط الذي ينفصل عن الاكبر في ناحية تساوت ويمتد الى تازا .

(3) - الاطلس الاصفر الذي يرتبط بزميله بواسطة جبل سارو البركاني وصخور هذا القسم من الاطلس عريقة في القدم من الوجهة الجيولوجية وهو اشبه بالنجود الصحراوية منه بجبال المتوسط .

وقد شبت سلسلة الاطلس بسد شاهق لان الاتصال بين السهل المراكشي البالغ ارتفاعه تسعمائة متر والاطلس الكبير البالغة اعلى قننه 4 200 متر (توبكال) هو اتصال مباشر لا تدرج فيه كما هي العادة وكذلك الاطلس الاوسط الذي يشرف على تادلة وجبال بني ملال .

وقد نخرت الانهار والسيول القلل المتوسطة الارتفاع حيث يكاد يستوي سطح الجبل وهذا بخلاف ما يلاحظ في الاطلس الكبير بناحية مراكش حيث تتشكل القنن بشكل دقيق حاد ولكن في الاحواض العليا لام الربيع ووادي بهت وابي رفراق تكثر السطوح المستوية الاديم التي تتخللها وهادات سحيقة تعلو جوانبها قنن حداد مثال ذلك بلاد زيان بفرب ام الربيع .

والمنظر في الاطلس ثقيل لارتفاع الجبال ولكن الاودية التي تحاذي هذه الجبال اما في شكل عمودي او مواز تحدث شيئا من الانفراج وهنا تتوافر المراكز والمجتمعات البشرية بسبب وفرة الممرات الممتدة في عرض الجبال كممر رصيفة في الاطلس الاوسط وزيز بشرق الاطلس الكبير والممرات الثلاثة الشهيرة بغرب الاطلس الكبير وهي ممر معاشو بمتوكة وتست بكندافة وتلوات بكلاوة وفي هذه الممرات تتجه الطرق نحو مراكش .

ان الحياة في داخل الاطلس الكبير تتميز في القمم الشاهقة الخالية من السكان - عنها في الاودية التي تتوافر فيها عوامل الثراء .

والسبب في قلة السكان في القمم العالية هو كثرة الثلوج في الشتاء وتخلل ذلك بالزوابع العاصفة ثم الجفاف اللافت زد على ذلك ان صلابة الصخور البركانية في غربي الاطلس الكبير وقابلية التخلل في المساحات الجيرية بشرقي الاطلس يحولان دون تطور المراعي ومسارح السوائم ولا يستثني من ذلك الا الهضاب الحمراء في متوكة وكلاوة حيث تتمخض الرطوبة عن مرعى خصيب يحصد اعشابه سكان النواحي المجاورة في اوائل الصيف ولكن الكلا في الجبال ليس سوى مورد اضافي لذلك تتركز الحياة في الاودية على ان هناك فرقا بينا بين شقي الاطلس الكبير الذين يفصلهما حوض تساوت : فساكن الناحية الغربية فلاحون ومزارعون لهم عناية بالاشجار بينما سكان الشرق ينتجعون كلا الجبال في الصيف وهم في ذلك اشبه بسكان الاطلس المتوسط .

وكل هذه الاودية ميدان للحقول المتدرجة والزررع التي تنتشر بفضل السقي ويتطلب حفر السواقي مجهودات جبارة يتغلب عليها السكان بما جبلوا عليه من مثابرة وحيوية ولكن كثيرا ما تكون منابع هذه السواقي محصورة وراء حاجز واد ينهار فيجرف سيله بالمدشر الواقع تحته وتنتج هذه الحقول المتدرجة في المنحدرات القمح والشعير والخضر (البصل

والبطاطس واللفت) تتخللها ازهار متنوعة وينبت الخرطال احيانا بدون سقي ولكن الذرة هي محور الاقتصاد ففي شهر اكتوبر تحصد السنابل وتترك الحقول للسوائم تمرح فيها وتكثر كذلك اشجار الفواكه كالبرتقال والكروم والزيتون والرمان واللوز والجوز (في الاودية العالية) ويتنوع الانتاج خاصة في المنحدرات المقابلة للصحراء واشد ما يدهشك في فصل الربيع خضرة الحقول والجنان في قلب الوادي المتنافية مع المنحدرات الجرداء اما الدور فان فيها طابقا يصعد اليه بدرج بسيطة لا تتعدى احيانا خشبة مشققة وتوجد في الطابق غالبا غرف كثيرة ودهليز لحفظ الحبوب وتتلاحق هذه الدور في علو متدرج حتى يصير سقف هذه عتبة لتلك وما اكثر هذه النماذج في شيشاوة ونفيس (كندافة) وريكة وتساوت ولكن علاوة على هذه الدور توجد قصبات محصنة يسكنها الشيوخ والقواد ونوع آخر يسمى تفرمت وهو عبارة عن عمارة مربعة بداخلها ساحة وبجوانبها باب ومنافذ ضيقة وبكل ركن برج للحراسة وكثيرا ما يقطن عدة عائلات في (تفرمت) واحد وهذا النوع متوافر في حوض وادي العبيد وايت شخمان وتتيمة حيث يتكون المدشر من مجموعة هذه الدور غير ان العائلات المتواضعة تقطن في دور وطيئة لا طابق فيها ولا ابراج (تدارت و امزير) .

ويتوافر لدى اغنياء هذه الاودية عزائب في الجبل ينقلون اليها سوائهم خلال فصل الصيف والعزيب عبارة عن ساحة محاطة بجدار من الحجارة تستعمل كحظيرة للقطعان وبني الراعي في جانب منها نواله ولكن في بعض الاماكن يكون العزيب بمثابة دار حقيقية تمتد حولها المزروعات الصيفية .

ويلاحظ ان النواحي التي يوجد فيها الجبر في الاطلس الكبير تغلب فيها تربية الماشية على الزراعة .

ويختلف الاطلس الاوسط عن الاطلس الاكبر وعن الريف معا فهو اقل ارتفاعا من الاول واقل تشققا من الثاني وهو يحتوي على اخصب المراعي المغربية ففي هضابه يكثر النبات نظرا لوفرة الامطار وطول مدة الثلوج وارتداد العواصف

التي تحدد من جفاف المصيف وفي منحدراته اجمات تتوافر فيها مساح السوائم وقد جعلت كثرة الامطار وخصب الارض من بلاد زيان مراعي يتدفق الكأ من جوانبها ولكن المنحدرات المتجهة نحو الملوية قليلة الخصب وهي في ذلك متعارضة مع المنحدرات المتجهة صوب المحيط الاطلسي حيث الخضرة الدافقة وابرز نموذج للخصب هي ناحية ولما س كما ان ابرز مثال للاجذاب هي تمحاضيت ولكن في الصيف يكون الماء والعشب اقل في الهضاب الغربية منه في اودية القمم العليا .

ويكسو الثلج القنن التي يزيد علوها على الفمي متر طيلة شهرين (من متم دجنبر الى نهاية ابريل) بحيث يستحيل المرور والجولان في تلك النواحي ويتعذر على قطعان الماشية الغذاء وبالاخص الشياه التي تتضرر ضررا فاحشا ويقسو فصل الشتاء احيانا فيودي بحياة الكثير من الغنم حتى يضطر الناس للاجواء الى النواحي القليلة الارتفاع التي تحاذي الاطلس الاوسط .

وتختلف حياة هذه القبائل الجبلية بل وحتى امكنة استقرارها باختلاف احوال الطقس فبنو وراين مثلا يضطرون الى النزول من اعالي الجبال الى سهول ملولو وهذه الحركة قديمة لان الناس يهجرون النواحي القاحلة في الجنوب الشرقي الى النواحي المحظوظة التي تكثر فيها الرطوبة بالشمال الغربي .

فنحن نجد مثلا قبائل زيان ترتاد الجبال في المصيف انتجاعا للمرعى كما تنزل الى السهول في فصل الشتاء للزراعة الشتوية وتصعد في الصيف الى الجبال لفلح الذرة التي تحتاج الى الري وهكذا ترتحل قبائل وادي العبيد بماشيتها الى قمم الجبال واهم المدن في هذه النواحي مدينة خنيفرة ويلاحظ ان البراكين قد لعبت دورا مهما حيث احوالت اودية الى سهول داخلية يجمع ترابها بين الحرارة والخصب وسهولة الري ويطفح بالزروع وبالاخص منها الذرة من ذلك صعيد وادي بهت وصعيد سبو وصعيد ام الربيع .

ولا اثر في هذه النواحي للتوابل التي تكثر خاصة بسهول المحيط
الاطلسي والغالب على الناس ان لهم دارا بالقرب من حقولهم الزراعية وعدة
خيام يتنقلون بها مع قطعانهم الى حيث يطيب لهم المقام وحتى ذلك النوع
الغالب من الدور متنوع حسب الجهات فهناك بعض المداشر تشبه دورها
ما نجده في الاطلس الاكبر (طابق فوق القسم الارضي وسطح ودهليز
مكشوف ودور متلاحقة متدرجة) ولكن ما اكثر الدور الواسعة الوطنية التي
يوجد في سطحها المنبسط ثقب هو عبارة عن مدخنة وتغلب القصور بالاخص في
تامغت ومرموشة وهي كناية عن دور محصنة انتقل استعمالها من الصحراء
الى الملوية ولكن يوجد نوع من الدور ينفرد به الاطلس الاوسط وهو البناء
المحصن الشامل الذي ينفذ اليه من باب واحدة تفتح وسط ساحة داخلية
اشبه بالنوع المسمى بتفرمت ولكنه وطيء بالنسبة اليه عارية اركانه الاربعة عن
الابراج مسقف بالخشب الذي يغطي حتى بعض جدرانه المتجهة صوب ناحية
المطر .

وقلما يسكن الناس في اوربا الجبال لانهم يفضلون السهول والبساتين
حيث الخصب والثراء ورقة المناخ وسهولة المسالك بخلاف ما في المغرب مع
استثناء المناطق العليا البالغة 1 800 متر في الشمال و 2 400 متر في
الجنوب فالمواطن البشرية في هذه المنطقة قليلة رغم عدم وجود ثلوج دائمة غير
ان الشتاء قارس البرد قاسي الثلج والصيف جاف خانق ومع ذلك فهذه
الجبال تلعب دورا مهما في حياة القبائل لان في سفوحها تتجمع المياه التي
يتمخض عنها الثلج الدائب .

ولا توجد في الجبال مساحات تتسع جوانبها للزراعة الكافية فقبائل
الريف والاطلس تشتري قسما من الحبوب التي تستهلكها من قبائل سبو
والبطاح المجاورة ولكن الزراعات التي تحتاج الى الري كالذرة والفواكه تجد
في متوسط القمم ما يساعدها على التفتح والازدهار وفي العروض الشاهقة

مسارح ومراع للقطعان وهكذا تمتاز الجبال المغربية - وبالاخص سفوحها
ووديانها - بتناسق مظاهر ثلاثة جوهريّة في النشاط الفلاحي وهي الزروع
والاشجار والسوائيم هذا علاوة على توافر الغابات التي تجد في المناطق العليا
مأمنًا يقيها الطوارئ والتقلبات .

ويمتاز المناخ الجبلي بانعدام الرطوبة وكذلك شدة حرارة السهول
الداخلية .

مدن المغرب في اطوار التاريخ

ذكر الزياني في الترجمانة الكبرى ان مدينة سلا بناها البربر وهي اول ما بنوا لما دخلوا الى المغرب وقيل بناها الاسكندر هي وشالة وقيل ان الذي بناهما افريقش الحميري وقد بنى امراء زناتة مدينة انفا بتامسنا ومدينة داي بتادلة وبنى امراء صنهاجة مدينة طيط بدكالة ومدينة ازموور بها ايضا ومدينة اسفي ثم اسس قبائل المصامدة مدينة شوشاوة ومدينة اغمات وريكة ومدينة اغمات ايلان اسسها نفيس المسمى به الوادي واسس ملوك قبائل حاحة قلعة الصويرة وقلعة اكدير واسس امراء شتوكة وجزولة مدينة ردانة ومدينة ماسة واسس بنو مدرار سجلماسة قبل الاسلام واسس امراء فطواكة مدينة دمنات قبل الاسلام واول مدينة بنيت بالمغرب بعد الاسلام مدينة النكور اسسها ادريس بن صالح الحميري في عهد عبد الملك بن مروان ثم بادس اسسها ادريس بن صالح واسمه بادس وملييلة اسسها امير بني يفرن عام 92 ثم فاس على يد المولى ادريس عام 191 ثم العرائش اسسها البرتغاليون عام 223 ثم اصيلا بناها بنو ادريس عام 250 ثم مدينة المهديّة اسسها امير بني يفرن عام 323 ثم مراکش على يد يوسف ابن تاشفين عام 454 ثم الرباط اسسها المنصور الموحدي عام 591 ثم تازا كانت رباطا فمدنها عبد المومن بن علي 529 ثم تطوان اسسها بنو مرين عام 730 ثم مدينة شفشاون اسسها علي بن راشد الشريف العلمي في الدولة الزيّدانية عام 920 ثم مدينة وازان اسس زاويتها عبد الله الشريف العلمي في دولة الزيّدانيين عام 1012 ثم تجديد الصويرة على يد المولى محمد بن عبد الله عام 1178 وكذلك فضالة عام 1182 واما قلعة دبدو وتاوريرت فمن انشاء بني مرين في السبعمائة ووجدة احدثها بنو يفرن امراء تلمسان .

قنط

مدينة قنط او كنتان تقع شمالى اسفي على مسافة اربعة وثلاثين كيلومتر
بشاطىء البحر .

وقد خربت اليوم حيث لم يبق الا بعض جدرانها وكانت قبل الان كثيرة
العمارة ولكن ضربها العرب ايام طارق بن زياد لما ذهب لفتح الاندلس ثم
قضى البرتغال على الباقي وقد ذكر الحسن بن الوزان الفرناطي المعروف
بليون الافريقي ان الافارقة الاقدمين هم الذين بنوها واثبت ايضا رواية
اخرى تقول بان بناتها هم القوط والذي رجحه المؤرخ مرمول ان هؤلاء بنوها
ايام استيلائهم على منطقة طنجة .

وقد كان اهلها شجى في حلوق البرتغاليين وتقوم الان في موقعها المنارة
المعروفة بكاب كانتان التي اسست ايام السلطان مولاي يوسف رحمه الله .

ازمور

تقع على شاطىء ام الربيع وكانت موجودة في عهد الفنيقيين وقد روى
الزياني ان امراء صنهاجة هم الذين اسسوها وهي كما وصفها ابن الخطيب
في كتاب الاختيار في ذكر المعاهد والديار (جارة واد رديف وعروس ربيع
وخريف وذات وضع شريف) وفي عام 914 استولى عليها البرتغال ولكنهم
اضطروا الى الجلاء عنها ايام السلطان احمد الاعرج السعدي وذلك عام 944 وقد
خرب البرتغاليون فيها قبل نزوحهم مدرسة من بناء ابي الحسن المريني .

الفريفة

مدينة اسسها قبائل دكالة في صدر الاسلام او قبله وهي احدى الروايات
ثم خربت عام 667 فاعاد بناءها ابو عنان المريني ثم تخربت سنة 921 وهي
تقع على بعد عشرين كيلومتر من الوليدية ويقال بان الذي خربها حوالي 919
هو الناصر ابو علي بن محمد الشيخ الوطاسي وقد ذكر الحسن ابن الوزان
ان هذه المدينة هي عاصمة دكالة وانها خربت عام 921 هـ .

تـيـط

تقع بجنوب الجديدة وهي من المراسي التي عتق عهدها في المغرب بناها
الاقدمون وقيل امراء صنهاجة حسبما عند الزياني وقد احتلها البرتغال
سنة 914 بعد احتلال ازموور ويستفاد من بعض الرحلات والتواريخ انها
كانت خالية شطرا من القرن الحادي عشر والثاني عشر ولم تستعد عمرانها
الا في المائة الثالثة عشرة حيث اصبحت مرساها موردا للبواخر ثم لحقها
الخراب .

سـجـلـمـاسـة

ذكر البكري في المسالك والممالك ان مدينة سجلماسة بنيت سنة 140
وليس بها ذباب ولا يجذم من اهلها احد واذا دخلها احد بجذام توقفت علته
والمجذمون عندهم هم الكنافون والبناءون عندهم يهود لا يتجاوزون هذه
الصناعة ويزرع اهلها سنة ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة اعوام لانه بلد مفرط
الحرارة وقد نقل الناصري هذا الوصف في رحلته التي كتبها عام 1196 ملاحظا
ان الحر شديد الوطأة فاذا يبس زرعهم تنثر عند الحصاد وارضهم مشققة
فيقع ما تنثر منه على تلك الشقوق فاذا كان العام حرث بلا بذر وكذلك الثالث
على ان غالب ما وصفه البكري غير موجود .

البـصـرة

كانت بين طنجة وفاس مدينة كبيرة واسعة هي اوسع النواحي مرعى
واكثرها زرعاً ولكثرة البانها تعرف ببصرة الذبان وتعرف ايضا ببصرة الكتان
ونساء البصرة مخصصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بارض
المغرب اجمل منهن فقد قال احمد بن فتح المعروف بابن الخراز التاهرتي
يمدح ابا العيش بن ابراهيم ابن قاسم .

قبح الله الله الا قينة في بصرة في حمرة وبياض
الخمير في لحظاتها والورد ف سى وجناتها والكشع غير مفاض

وقد أسست البصرة في الوقت الذي أسست فيه أصيلا في القرن الثالث
(المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ص 111) .

مراكش

بناها يحي بن عمر حسبما ما ورد في الحلل الموشية او يوسف بن
ناشفين حسبما ورد في جل تواريخ المغرب او على بن يوسف حسبما ذكر
ذلك الزركشي في تاريخ الدولتين (ص 5) .

الصويرة

توجد ثلاث مدن كلها تسمى بالصويرة وتقع الاولى في مصب وادي
تنسيف وهي تبعد عن اسفي بما يقرب من اربعين كيلو مترا وقد كانت مركزا
من مراكز البرتغاليين اما مدينة الصويرة الجديدة التي اسسها سيدي محمد بن
عبد الله عام 1182 فانها تبعد عن اسفي بمسافة 130 كيلومترا وكانت مرساها
معروفة في القديم بمرسى مكحول بخلاف مرسى الصويرة الاولى فانها كانت تسمى
كما ذكر ذلك البكري في المسالك (قوز) والقصبة الثالثة هي الصويرة القديمة
التي تبعد عن الجديدة بما يزيد على 16 كيلو متر وهي واقعة على نهر حاحة
وهي من تأسيس ملوك حاحة قبل الاسلام ولكن بها بنايات من العهد السعدي
(محمد الشيخ وولده المنصور) .

المرائش

في سنة 1657 اسس يوسف بن علي مدينة المرائش (ص 97 من الذخيرة
السنية) .

فاس الجديد

ابو يوسف بن عبد الحق المريني هو مؤسس مدينة فاس الجديد (ص 99
من الذخيرة السنية) .

اكادير

ذكر الشيخ ابو المباس بن القاضي في كتابه المنتقى المقصور ان السلطان ابا عبد الله محمد الشيخ هو اول من اختط مرسى اكادير بالسوس الاقصى سنة 947 لما اجلى النصارى من الموضع المعروف بفونتي وكان له في اختطاطه راي مصيب وفراسة تامة .

ايليف

شرع بودميعة في بناء ايليف سنة 1021 هـ وسكن فيها عام 1031 هـ (ايليف قديما وحديثا مخطوط من تاليف الاستاذ المختار السوسي) .

قصبة الاوداية

ذكر ابن حوقل في رحلته ان قصبة الاوداية التي كانت عبارة عن رباط يجتمع فيه المسلمون بقصد الجهاد ومقاتلة البرغواطيين كان يجتمع فيها من المرابطين مائة الف انسان يزيدون وينقصون وذكر صاحب الحل الموشية انها من بناء يوسف ابن تاشفين وهو خلاف ماورد في مجلة البعثة العلمية الفرنسية التي كانت بطنجة وعبد المومن هو اول من اتخذها دارا فادار اسوارها وبنى مسجدها ومدرستها واجرى اليها الماء من نحو عشرين ميلا كما في الاستبصار وذلك بعد عودته من فتح فاس عام 540 وقد سماها المهديّة وقد ذكر ياقوت في معجمه ان عبد المومن كان ينزل بهذه المدينة اذا اراد ابرام امر وتجهيز جيش و اشار الى بناء عبد المومن للمهديّة كذلك ابو الفداء في تقويم البدان . وذكر تيسو في جغرافيته (ص 233) ان ما وجد من الاثار العتيقة بالمحل الذي بنيت فيه الرباط شاهد على ان مدينة شالة كانت بنايتها متصلة بالاوداية ومصب الوادي .

قصبة اير

ذكر الكانوني في (اسفي وما اليه) ان تاسيس هذه المدينة غير معروف على انها كانت موجودة في القرن الثامن الهجري وتعرف عند الافرنج بكاب اير

وهي احدي النقط التي كان احتلها البرتغال وكانت لرجل برتغالي بها دار لصيد السمك . فاشتراها من سلطان البرتغال وبنى برجاً سماه سانت كروا وكان هذا البرج مركز جنود البرتغال وفي عام 922 هـ موافق 1518 توجه اليها الشريف ابو عبد الله السعدي فشق البلاد حتى بلغ اليها وحاصرها فانفجر برميل بارود كان بداخلها فاندكت بعض الاسوار واختل نظام البرتغاليين واسلموا انفسهم اسارى للشريف .

قصة ابي الاعوان

تقع على شاطئ ام الربيع من قبيلة دكالة وقد اسسها حسبما رواه الحسن بن الوزان السلطان عبد المومن بن علي الموحدي ومما يذكرونه عنها انه كانت بها دار للاضياف ياكلون ويشربون فيها والجماعة هي التي تؤدي ما يترتب على ذلك من مصاريف وهذه العادة جارية الى الآن في بعض نواحي الاطلس

قصة الوليدة

ذكر ابو القاسم الزياني في الترجمان المغرب ان الوليد بن زيد ان السعدي هو الذي بناها بساحل دكالة وان مرساها من احسن المراسي كالصندوق وهي واقعة على شاطئ البحر بالقرب من قصبة اير . والمرسى قديمة كانت مفتوحة في الدولة السعدية حيث نقل الزياني عن القسمطيني صاحب انس الفقير انه دخل اليها سنة 763 وكان البرتغال قد احتلها .

ملكة سلا

اشتهرت مدينة سلا في القديم اشتهارا كبيرا حتى ان من ارخ للمغرب من علماء الشرق جعل كل ما حولها من مدن من جملة مضافاتها فقد كتب السلطان المؤيد ملك حماة اسماعيل بن الملك الافضل الايوبي المتوفى سنة 327 في كتاب تقويم البلدان لدى التعريف بمدينة مراكش نقلا عن ابي سعيد « وجنوبي مملكة جبل درن وشماليها مملكة سلا وغربيها البحر المحيط » الخ . . .

شرقية الحضارة المغربية

الحضارة في مدلولها العام ومعناها العالي تستلزم طائفة من العناصر ابرزها شيوع العمران وانتشار العلوم والفنون وحسن انتظام الاجتماع وتوازن الاقتصاد وعظمة الجهاز السياسي وضخامة المقومات العسكرية وما شئت من مظاهر العزة والقناعة والوفرة والامن والنظام والحضارات تقوى وتضعف بحسب قوة تلك العناصر وضعفها ودرجة اكتمالها والصيغة التي تصطبغ بها فهناك حضارات يطفئ فيها الجانب المادي على الجانب الروحي اي تسود فيها مظاهر العمران والمدنية الملموسة وتلك سمة يغلب وجودها في الحضارات الاروبية بخلاف الحضارات الشرقية التي تضم الى جانب هيكلها المادي مجموعة روحية لا تزال الانسانية تستمد منها الى الآن سواء في ميدان الفلسفة ام الاقتصاد ام الاجتماع وغير خاف ان اقدم الحضارات في العالم هي الحضارة الشرقية من صينية وهندية ومصرية واشورية وكلدانية وفينيقية وفارسية ولهذه الحضارات الاسوية تراث فكري ومادي كان ولا يزال من اجل دعائم الحضارة الغربية الارية واقسول مادي لان كثيرا من الاختراعات البدائية قد استمدتها الانسانية منذ فجر التاريخ من الحضارات السامية القديمة

ان من تتبع مقومات الحضارات الانسانية يلاحظ ظاهرة قديمة وهي امكان رد معظم هذه المقومات الى المدنية الشرقية ففي الفلسفة وفي العلوم وفي الاقتصاد يصطدم المؤرخ بطائفة من المعلومات منتشرة في كتب منها المطبوع ومنها المخطوط يدل مجموعها على ان كثيرا من مظاهر المدنية التي تبناها عصر الانبعاث في اوربا ترجع لاعمق العصور ولاعرق المدنيات الشرقية .

ومن اهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها علاوة على مصنفات التاريخ مصنفات الجغرافيين العرب وكتب الرحلات غير ان هذه الوثائق لا تعطينا في الغالب فكرة عما قبل القرن الثالث الهجري الذي ترجع اليه اقدم وثيقة في هذا الباب . ويطول بنا العرض اذا نحن حاولنا استقراء مظاهر المدنية الشرقية العتيقة التي تبناها الفرييون لذلك سنقتصر على نماذج مبعثرة من مختلف الحضارات والعصور نستقيها من الرحلات وكتب التاريخ العربية والاجنبية .

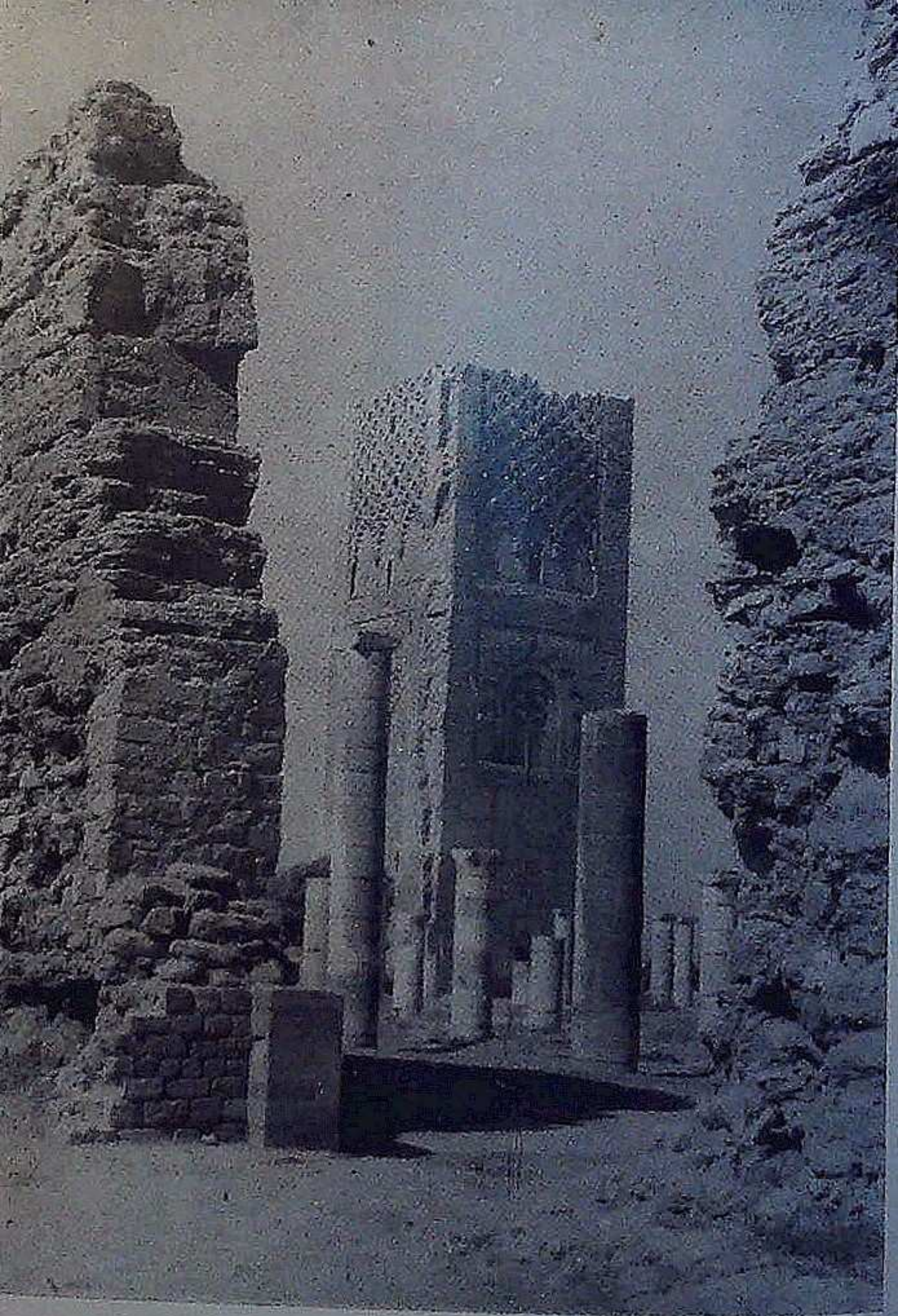
وقد اعتنى العرب بتدوين اخبار الامم ولم تحل شساعة المسافات وبدائية وسائل النقل دون زياراتهم المتوالية الى شتى الاقطار فهذا سلام الترحمان رحل الى الصين الشمالية ايام الوثائق وابن وهب القرشي رحل كذلك الى الصين عام 356 وزار الخليج الصيني قبله سليمان العراقي الذي كتب رحلته عام 237 وهو اول رحالة عربي اشار الى وجود الشاي في الصين ثم زار الصين عام 331 الرحالة ابو دلف وهذا ابن فضلان طاف البلاد البلغارية عام 309 في بعثة ارسلها المقتدر بالله الى ملك البلغار بعد ان اسلم وزارها بعده ابو حميد الفرناطي عام 530 .

ثم تضخم اواخر القرن الثالث واولائل الرابع الرحالون الجغرافيون كالا صطخري والمسعودي وابن حوقل والمقدسي فكتبوا الشيء الكثير عن المدنات القديمة التي اتصلوا ببقاياها كما سجلوا مظاهر الحالة الاجتماعية والاقتصادية في مختلف البلاد العربية ومن هؤلاء ناصر خسرو الذي وصف الحالة الاجتماعية بمصر في رحلة تعتبر مصدرا اساسيا لدراسة الحضارة في الشرق الاسلامي في القرن الخامس وقد اكد لنا ان اجور العمال كانت مرضية وان الائتمان التجارية كانت محددة (على غرار الاساليب العصرية) وان البائعين كانوا ياخذون على انفسهم - مثل الدور التجارية الكبرى في عصرنا - اعطاء الزجاج والوانى الخزفية والورق لوضع اولف المبيعات وكان العرب

يستعملون الحوالات البنكية منذ القرن الخامس مع ان هذا النوع من وسائل
المعاملة لم ينتشر في اوربا على نسق كامل الا حوالي القرن السابع عشر
بينما كان رواد اسواق البصرة منذ ثمانية قرون يودعون اموالهم عند اصحاب
المصارف وياخذون منهم اقرارات باستلامها ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه
صكوكا او اذنا بقبض البائع قيمته من صاحب المصرف . ويزعم بعض علماء الاثر
ان المقابر الاثرية الفرعونية لم تعرف جيدا الا بعد دخول نابليون الى الكنانة مع
ان ما خلفه لنا الرحالة عبد اللطيف البغدادي الطبيب الفيلسوف عن المقابر
الاثرية لا يختلف كثيرا عما وصلت اليه الحقائق العلمية في العصر الحاضر .

وما دمنا نستعرض مظاهر التقدم الاجتماعي في الشرق العربي يجب ان
نشير الى اساليب التجهيز الاجتماعي وغير الاجتماعي في البلدان العربية في
القرن السابع والثامن فقد كتب ابن بطوطة المغربي وصفا مقتضبا لما شاهده
في دمشق حيث توافرت الملاجيء والهيآت الخيرية فكانت هناك اوقاف
لتجهيز الفتيات المعوزات الى ازواجهن واخرى لفكك الاسرى واخرى لابناء
السبيل واوقاف لتعديل الطرق ورصفها لان ازقة دمشق كان لكل منها
رصيفان في جنبها يمر عليها الراجلون ويمر الركبان بين ذلك وكان بدمشق
ايضا وقف الاواني المتكسرة وهو شبيه بالوقف المغربي الذي كان مرصودا
لنفس الغاية الا ان المغرب كانت به علاوة على بعض ما ذكر انواع اخرى من
الاوقاف هي غاية في الفرابة مثل الاوقاف المحبسة لطعام الطيور .

ومن ابداع ما حدثنا عنه ابن بطوطة في ميدان الصناعة الرقيقة ان بعلبك
كانت تصنع ملاعق وصحافا يتداخل بعضها في جوف بعض الى ان تبلغ العشر
وكانت عشاريات الملاعق تغشى في خرز من جلد وقاية لها ، وقد تأسست
في بعض انحاء الشرق اذ ذاك جماعات اشتراكية اسمى من تلك التي حدثنا
عنها رجال الاقتصاد في القرن السابع عشر باوربا فقد
كانت بالاناضول جماعات الاخوان او الفتيان تتركب من عزاب يعيشون



جامع حسان بالرباط

على مائدة واحدة ويتعاونون على البر واکرام الضيف والفناء والرقص واللهو البريء ويتصل نظامهم بنظام الفتوة في الاسلام .

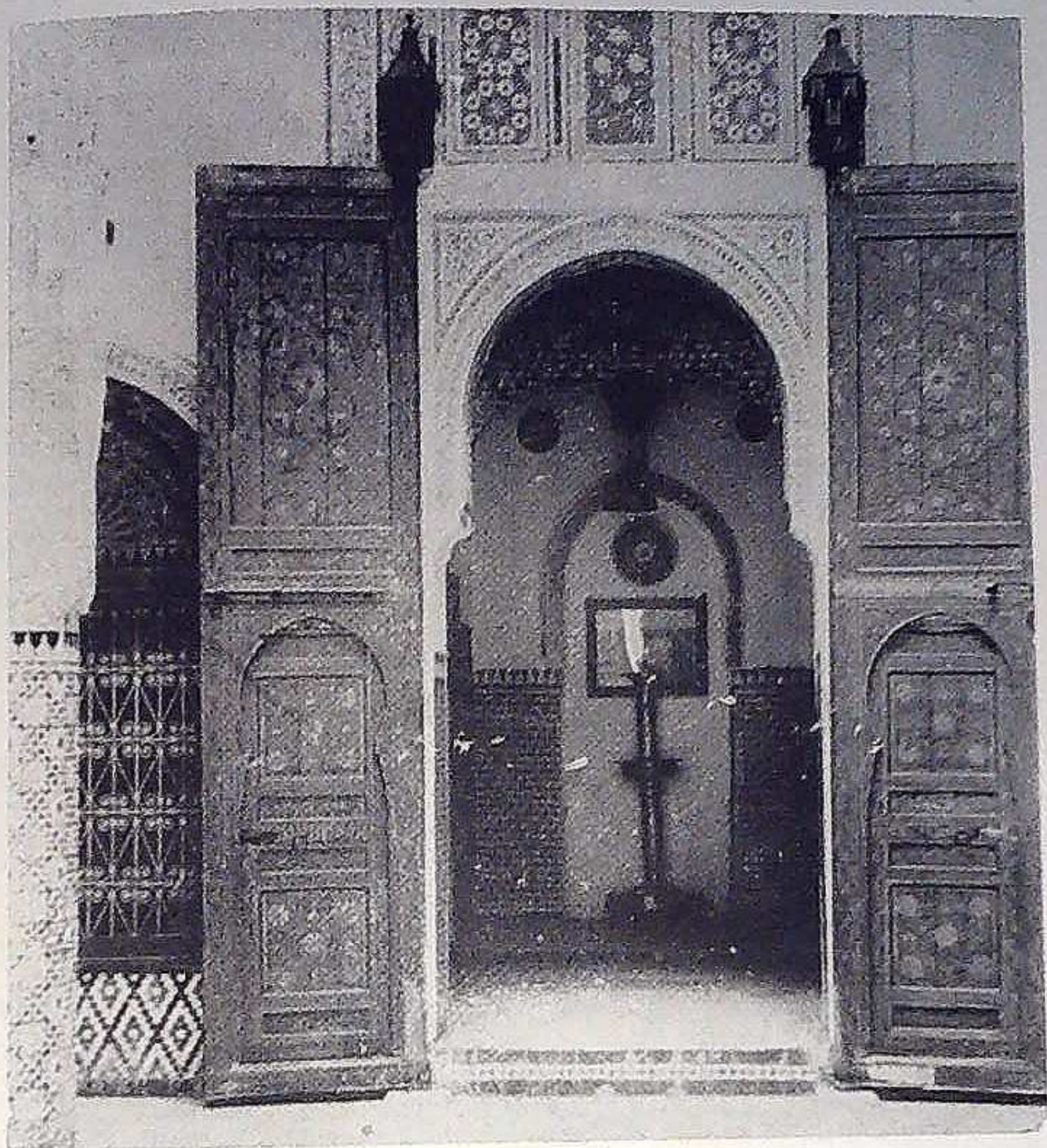
ولا يخفى ان العرب اكتشفوا امريكا قبل كولمب وانهم سبقوا سائر الامم الى معرفة تيار الخليج Gulf - Stream الحار في المحيط الاطلسي والى حركته من المكسيك الى ارلنده .

وكان نجم الحضارة الصينية في طور الافول عند ما زار ابن بطوطة انحاء الصين ومع ذلك فقد حدثنا عن اشياء لم تعرفها الحضارة الغربية بكيفية واسعة الا منذ قرنين فقد كان الصينيون يستعملون الاوراق البنكية بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان فاذا تمزقت حملوها الى دار السكة لياخذوا عوضها وقد طبع التتر كذلك اوراقا بنكية وهم اول من ضرب النقود على مقاييس معينة ليتعامل الناس بها عدا لا وزنا ، وكان العامل او الصانع يعفى من الشغل وتنفق عليه الحكومة اذا بلغ الخمسين وهو مظهر قوي للاسعاف الاجتماعي يستغرب وجوده في ذلك العصر .

وقد اورد ابن بطوطة مثالا آخر لعظمة الجهاز الصناعي فذكر انه رأى ١٣ مركبا يحتوي كل منها على اربع طبقات يسكن فيها البحارة مع اسرهم ويزرعون الخضر والبقول في احواض من خشب .

وفي الوقت الذي كان كثير من الاوربيين يعتبرون الاستحمام شيئا ثانويا كان ببغداد عاصمة الخلافة وحدها في عهدي الرشيد والامين ستون الفا من الحمامات على ما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه ؟ وقد وقف ابن جبیر في القرن السادس على الفين من الحمامات في بغداد قد طليت سطوحها بالقار وهذا النوع من المفتسلات الحارة هو من الاشياء التي اخذها المشاركة عن الرومان .

والحضارات تتكيف تبعا للجو المحلي وطبقا لمؤثرات تتفاعل من اجل وسمها بطابع خاص .



صورة لجناح من قصر مغربي وتظهر في الصورة نماذج للنقش على
الجبس والتطعيم الذهبي للخشب ، والزليج الرقيق

فما هي وضعية الحضارة المغربية بالنسبة للحضارات العالمية ؟ وما هي منزلتها كحضارة اسلامية بالنسبة للحضارات التي توالى على المغرب قبل الفتح الاسلامي ؟ وما هي علاقة الحضارة الشرقية بالحضارة المغربية في عدوتي المغرب والاندرلس ؟

ان العرب لما فتحو افريقية والمغرب وجدوا الحضارات التي توالى على البلاد قد عفى عليها تناحر الامم التي تنازعت السلطة في المغرب قبل دخول الاسلام اليه فالحضارة القرطاجنية قد قضى عليها طغيان الرومان الذين محقوا عاصمة قرطاجنة واستأصلوا من ربوعها الزاهرة جذور المدنية والعمران ثم بنوا على انقاضها شيئاً جديداً ما لبث الوندال ان استاصلوه بدورهم ولكن لم يلبثوا في المغرب زهاء القرن حتى انقض عليهم الروم سكان الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزانس) فارتكبوا فيهم ما ارتكبه هم في الرومان وما ارتكبه الرومان في القرطاجنيين وقد ذكر المؤرخون انه لم تمض ستة اشهر على انتصاب الروم حتى عفوا على آثار الوندال بالبلاد وخرج المغرب من سلسلة الاحتلال الاجنبية صفر اليد خاوي الوفاض منهوك القوى ووجد سكان البلاد وهم البربر انفسهم كما كانوا اول مرة بدائيين في حضارتهم وقد اكد الاستاذ الفريد بيل في كتابه (ديانة الاسلام في بلاد البربر) (ص ٦٤) ان مما لوحظ كون لغة القرطاجنيين والرومان وكل ما استمده البربر خلال الاحتلال الروماني والقرطاجني - قد اندرس بعد انقضاء الاحتلال المذكور وان البربر عادوا الى استعمال لغتهم والى اساليبهم الوحشية مما يدلنا على ان البربر لم يستفيدوا قلامه ظفر من حضارة قرطاجنة ولا رومة ولعل الاستاذ بيل نسي ان يقول بان الشيء الذي ظل متغلغلا في روح البرابرة هو اللغة البونيقية التي كانت قريبة من العربية والتي امتد اشعاعها على يد الكنعانيين العرب ابناء البربر من قرطاجنة الى قابس ومن طنجة الى بجاية .

ولكن هل كانت للبربر حضارة قبل سلسلة الاحتلالات الاجنبية ؟ ام كانوا مغمورين في بوتقة الشعوب المتوحشة كما يزعم كثير من المؤرخين الاجانب ؟ يجب ان نعلم قبل كل شيء ان البربر اسيويون لا افارقة وانهم هاجروا من آسيا الى المغرب عن طريق مصر والبلاد الليبية وجاء برابرة الاطلس المغربي على الخصوص من ربوع الشام حيث كان يجمعهم قرب الجوار مع ابناء عمهم العرب الكنعانيين فالحضارة البربرية حضارة اسيوية بدائية تركز على الزراعة والرعي وقد وصف لنا مؤرخون اجانب التجانس الذي كان ملحوظا بين عادات العرب والبربر والذي كان يبلغ سويداء الحياة الاجتماعية بل والدينية وقد اخترع البربر احرفا هجائية في الوقت الذي اخترع الكنعانيون احرفا خاصة بهم والحروف المعروفة بحروف تفناغ لاتزال مستعملة عند البربر الطوارق الصحراويين الى يومنا هذا . وعند ما انكشف شعاع الحضارات القرطاجنية والرومانية والوندالية من المغرب انساق البربر في تيار حضارتهم الشرقية الاصلية التي تبلور فيها مثل عليا ملكت منهم المشاعر وتغلغلّت في الاعماق كانوا - كالعرب - يحبون الاستقلال ويتشبثون بالحرية وتجمعهم مع العرب كما قال سديو (ميول وعواطف واحدة ومبادئ متشاكلة كحب الفخر والهيام بالحرية واکرام الضيف) .

وقد وجد البربر انفسهم بعد الفتح العربي الاسلامي ازاء شعب من بني عموماتهم يشاطرهم مثلهم السامية وتقاليدهم الحرة فامتزج العنصران ولم يزد توالي القرون التمازج الا قوة وعمقا فتكونت مع الزمان مدينة مغربية مزدوجة القوام انصهر في بوتقتها تراثان كلاهما شرقي الاصل طبعه الاسلام ووسمته العروبة بميسمها الخاص .

وهنا تظهر حيوية الاسلام في افريقيا الشمالية بالخصوص تلك الحيوية التي اقربها الفريدبيل كما اقربها قبله وبعده مستشرقون منصفون فالاسلام هو الذي استطاع وحده ان يخلق في هذه البلاد حضارة حقا دائمة مكتملة العناصر بعد ما عجزت عن ذلك الحضارتان القرطاجنية والرومانية رغم

سموهما واعني بالحضارة الحق حضارة تركز على مقتضيات اجتماعية كوجود
الامة واكتمال مقوماتها وتوفر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام
كيانها واستمرار وجودها وصيانة تراثها وتراثها وهذا الشيء قد اوجده
الاسلام الذي انضوى المغرب تحت رايته طيلة اربعة عشر قرنا .

وقد تطورت تلك الحضارة المغربية ضمن دائرة العروبة والاسلام
محتفظة على ممر العصور بروحها الشرقية الخالصة وتطورت بجانبها حضارة
اخرى - هي حضارة الاندلس - استمدت روحها من تراث الشرق الذي
نقله الفاتحون والمهاجرون واضفت العوامل والتفاعلات المحلية على تلك
الروح جلبابا لم تكن لحمته ولا سداه ليمتدا الى الاعماق حيث ظلت السيطرة
للروح الشرقية وحدها .

ان للوضعية الجغرافية بعض الاثر في تكييف العقلية نوعا ما ثم الانتاج الفكري
ثم مظاهر الحضارة ومع ذلك فقد ظلت الحضارتان الاندلسية والمغربية
شرقتين بعد ان تفاعلتا نحو من ثلاثة قرون اي منذ عهد المرابطين الى
عهد المرينيين تحت اشراف عاصمتي مراكش وفاس .

والثقافة الشرقية هي المنوال الذي حاك عليه رجال الفكر المغاربة منذ
صدر الاسلام ومن تتبع جزئيات التراثين الشرقي والمغربي اسلوبا ونزعة
وروحا لاحظ وحدة الجوهر ادبا وفلسفة واجتماعا مع فروق سطحية مرجعها
الى مقتضيات اللون المحلي .

فالحضارة المغربية شرقية بدءا ونهاية ليس فيها اي اثر يذكر للحضارة
اللاتينية التي قدر لها ان تمر مر السحاب في هذه البلاد .

والحضارة الاندلسية حضارة مغربية صميمة اي شرقية المبنى عربية
المعنى وقد تناوبت عواصم العدوتين وبالاخص فاسا وقرطبة مع عواصم
الشرق في حمل راية الحضارة العربية الاسلامية في العالم ايام كان الجهل مخيما
بكليله الثقيل على اوربا فكانت فاس مركزا للاشعاع الفكري والروحي يستمد

من نبراسه المشاركة والاروبيون كما هو معلوم عند من له ادنى المام بتاريخ الحضارات .

وتراث العروبة نفسه لم يكتمل في كثير من مقوماته الا بمساهمة المغاربة في بناء صرحه كالشريف الادريسي (استاذ اوربا) بجغرافيته وابن بطوطة برحلاته وابن خلدون باجتماعياته والحاتمي باشراقياته وابن رشد بفلسفته وفقهه وطبه وابن الخطيب بادبياته ونكاته (التي يبد بها الجاحظ في كثير من الاحيان) وابن حزم بتنسيقاته الفلسفية والدينية وابن طفيل بنظرياته في الفلسفة الفطرية .

وقد كان في المغرب علماء حملوا مشعل السلفية الحق على غرار ابن تيمية او بن القيم في مصر والشام والشوكانى في اليمن ومن اولئك العلماء المهدي بن تومرت وابن العربي المعافري والشيخ زروق والامامان المازري والطرطوشي .

فنحن معشر المغاربة بعنصرينا امة عربية المحتد شرقية الروح اسلامية العقيدة : وحضارتنا حضارة شرقية عربية اسلامية في جوهرها ومقوماتها .

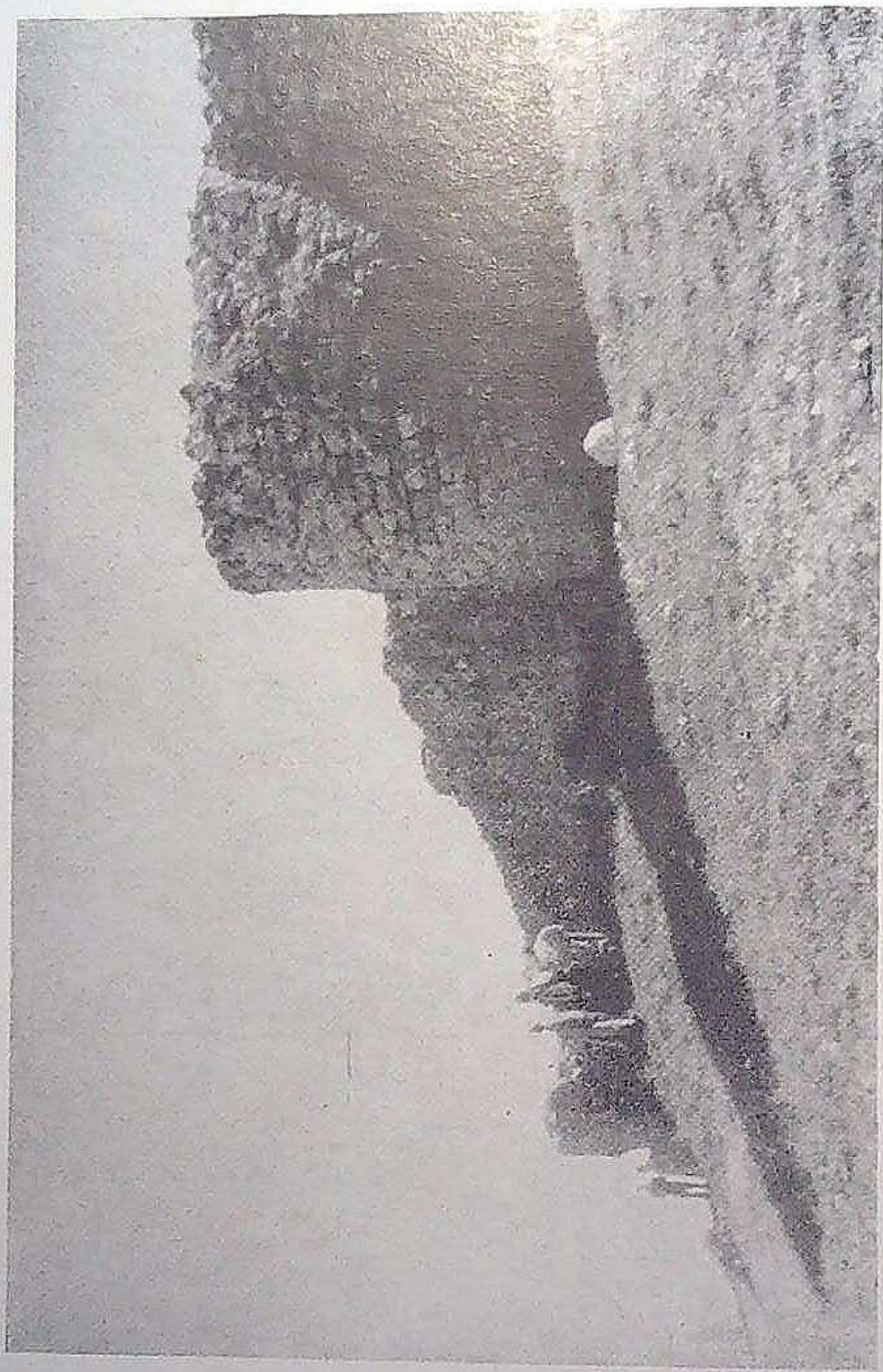
وهي حضارة تتمثل فيها كل المؤهلات التي تتكون الحضارة من بعضها فضلا عن مجموعها .

وحدة الحضارتين المغربية والاندرلسية

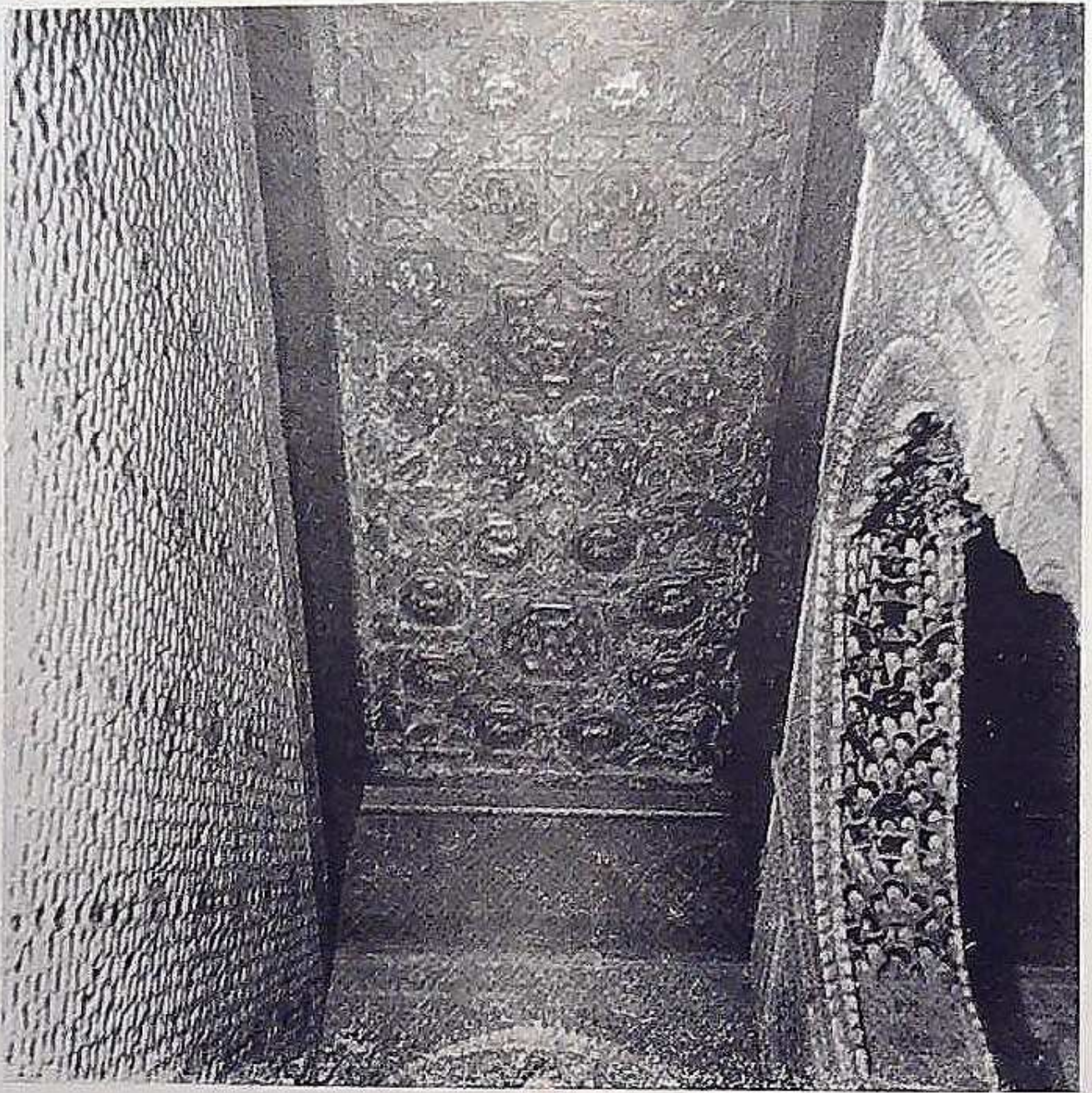
عاش المغرب والاندلس متحدين اتحادا سياسيا نسبيا نحو من ثلاثة قرون (من عهد المرابطين الى اوائل عهد المرينيين) وقد تم الانصهار والتمازج بين العنصرين الذين كانت تجمعهما عوامل شتى لما كان بين البلدين من اواصر التزاور والمبادلة فكانت الوفود الاندرلسية تترى على مراكز عاصمة المرابطين والموحدين ثم على فاس حاضرة المملكة المغربية في عهد المرينيين وكان افراد الشعب المغربي الذين يهبون بين الفينة والفينة لانجاد اخوانهم سكان العدو الشمالية يتصلون بالعناصر الاندرلسية ويقتبسون منها كثيرا من الاشياء فكريا واجتماعيا على ان هذا الاقتباس لم يكن واسع النطاق لكون معظم العناصر التي كانت تجوز اذ ذاك الى العدو بدوية من سكان الاطلس لم تنهذب لديها بعد حواشي الحياة والمتطوعون الحضريون كانوا قليلين في القرون الاولى واستمر الاحتكاك الفطري عن طريق رجال مشهورين ولم يكد ينتصف القرن السابع الهجري الذي شهد سقوط معظم العواصم الاندرلسية في قبضة الاسبان حتى تضخمت حركة الهجرة فكان لذلك اثره الفعال في حياة المغرب الناعمة وقد توالى سيل المهاجرين الاندرلسيين ايام السعديين فنقلوا معهم نماذج الحضارة الاندرلسية التي طبعت اذ ذاك الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المغربية بطابع الفخامة والرقعة ولم يكد يقع النفي العام بالاندلس حتى غصت رحاب بعض كبريات المدن المغربية كفاس وتطوان وسلا بعلماء وشعراء وفنانين وتجار وارباب حرف ساهموا فعليا في صهر الحضارتين صهرا طبيعيا منذ ذلك العهد بطابع الطرافة والرصانة والسمو وقد امتزجت كثير من العادات والمظاهر المقتبسة من الحضارتين امتزاجا عميقا تميز معه رد كل منهما الى ينبوعه في كثير من الاحايين .

والعادة في مثل هذه الحالة ان يرجع الانسان الى اقدم المصادر التاريخية واثقها بالنسبة للبلدين فيحقق وجود هذا المظهر او ذاك وهذه المادة او تلك ولكن الشيء الذي يجعل المقايسة والتنظير متعذرين ان لم تقل مستحيلين هو كون المصادر المغربية لا تهتم كثيرا بالجانب الاجتماعي في التاريخ بل تقتصر عنايتها على الوقائع العسكرية ولا تلم بالاجتماعيات ولا بالفكریات نفسها الا لما بخلاف المصادر الاندلسية التي افاضت في وصف المجتمع العربي في قرطبة واشبيلية وغرناطة وصفا دقيقا ولا اعني بالمصادر الاندلسية المصادر العربية وحدها فمعظم هذه قد ضاع في ثنايا النكبات التي منيت بها الاندلس حيث احرق الاسبان نحو الثمانين الف مخطوط عربي ولكنني اقصد ايضا تلك الصفحات الناصعة التي كتبها عن المجتمع الاندلسي امثال الدكتور لي ولين بول ولورنتي وبريسكوت ودوزي وغيرهم . وما كتبه الاجانب عن المغرب قليل جدا اذا قيس بما كتبه عن الاندلس ومع ذلك فاننا نجد في ذلك الحظ النادر الذي ناب المغرب من عناية الكتاب والرحالين الاروبيين كثيرا من الاشياء لم يكن وجودها بالمغرب في عهد من العهود يخطر على بال المغاربة لان مؤرخي المغرب لم يتعرضوا لها بالمرّة او تعرضت لها مصادر فقدت منذ زمان .

ويتجلى الطابع الاندلسي خاصة في تطاون وفاس في ميدان التجارة والاقتصاد والموسيقى وفي سلا في مناهج واساليب الفلاحة ففي كل من فاس وتطاون نلاحظ الى اليوم وجود اعراف ومظاهر واتجاهات يرجع اصلها الى المهاجرين الاندلسيين الذين وصفهم سرفانتيس في بعض رسائله بالاقتصاد في الانفاق واكتناز المال واحتكار تجارة الاغذية في الاندلس حيث كانوا يضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها وذكر الدكتور لي انه كان منهم تجار البقالة والماشية والقصابون والخبازون واصحاب الفنادق وهم لا يشترون العقارات احتفاظا بحرية استعمال اموالهم فكان ذلك من اسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية ولا تزال ظاهرة اندلسية بارزة في اخلاق التطوانيين



بقايا اسوار مدينة البصرة



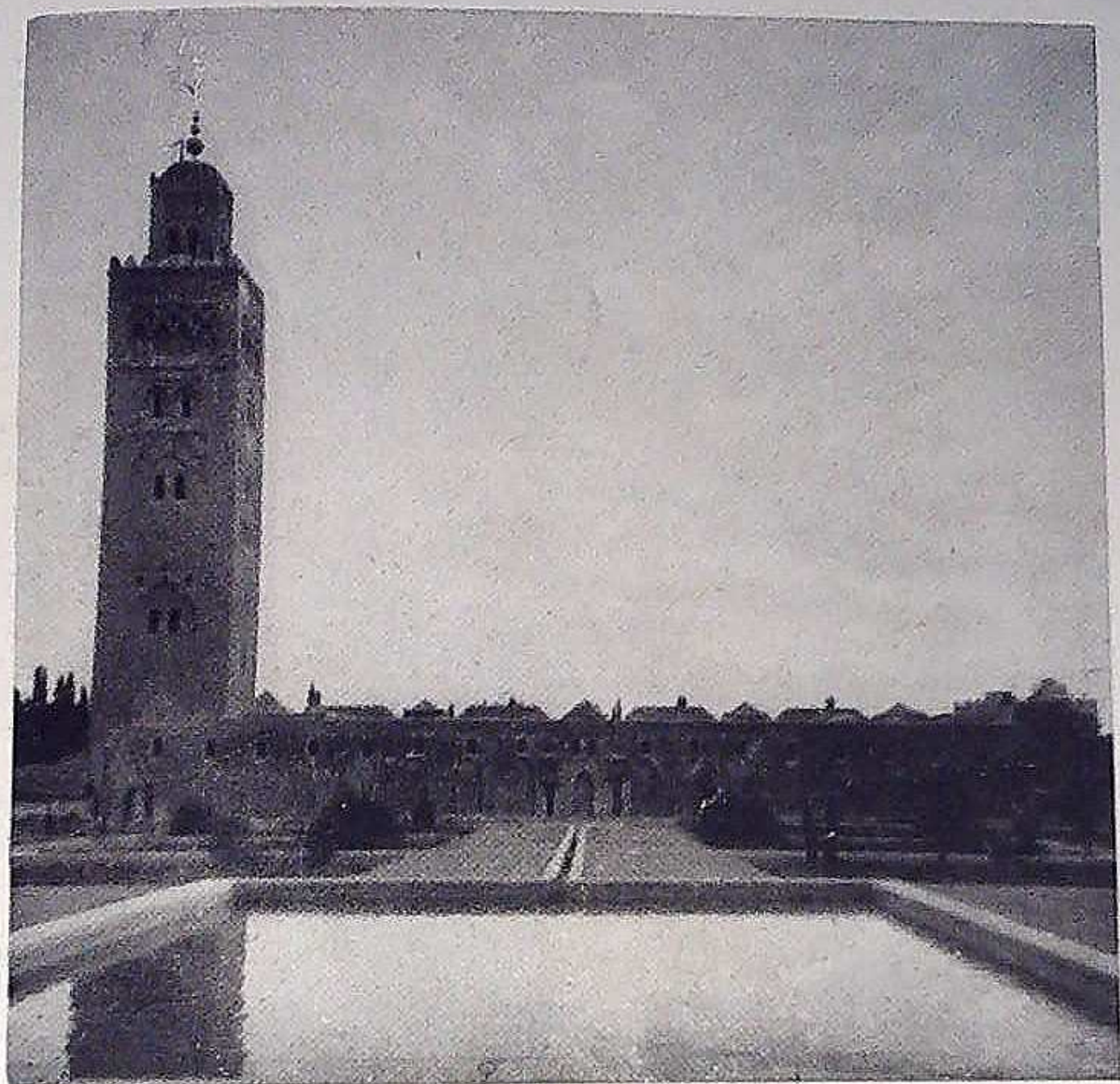
النقش في الخشب والحجارة ايام السعديين
(قبور السعديين بمراكش)

والسلاويين وهي استمساكهم بترائهم لا سيما منه الحقول والجنان بحيث لا يفوتونها على نسق غيرهم .

ومن العادات الاقتصادية التي عرفت بالاندلس ولا ندري هل جرى العمل بها في المغرب ام لا وجوب تسجيل الاثمان في بطاقة وتعليقها على البضائع المعروضة للبيع (النفج ج ١ ص ١٣٤) .

والمنصورة عيد فلاحى كان الاندلسيون يحتفلون به يوم 24 يونيه من كل عام ولا يزال المغاربة يحتفلون به الى الآن لا سيما في المراكز الفلاحية كمدينة سلا التي كانت الى عهد غير بعيد تنهج خطة معقدة في الاحتفال بهذا اليوم وهناك كثير من العادات والاساليب اقتبسها الفلاحون المغاربة من اخوانهم الاندلسيين فقد ذكر ابن غالب في فرحة الانفس ان اهل الاندلس لما جلوا عن البلاد الى المغرب الاقصى مال اهل البادية في البوادي الى ما اعتادوه وداخلوا اهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار وحدثوا الارحي الطاحنة بالماء وكذلك رجال الصنائع والاساليب المعمارية نفسها اتخذت في المغرب شكلها النهائي البديع ايام بني عبد المومن الذين كانوا يجلبون صناع الاندلس وقد انتقل هذا الفن من مراكش الى تونس التي هي مركز رابع في افريقيا الشمالية صبفته التفاعلات بطابع اندلسي رائق وقد اكد المؤرخ الاندلسي ابن سعيد ان ذلك الانتقال كان على يد سلطان العاصمة الخضراء ابي زكرياء الحفصى .

وكان فن الاحصائيات العمرانية متقدما في فاس حيث احتفظت لنا كتب التاريخ باحصاء رسمي لدور فاس ومعاهدها ومصانعها ايام المنصور والناصر على غرار ذلك الاحصاء الذي خلفه لنا المنصور ابن عامر عن قرطبة وضاحتها. اما ما يتعلق باللباس والزي فهناك تبادل قوي بين العدوتين ولنضرب لهذا امثلة بسيطة قد لا ينتبه الكثير اليها بل لم يشر اليها احد من المؤرخين فيما نعلم ، فسكان الحواضر المغربية لا سيما فاس والرباط وتطوان يلبسون قلائس حمراء محاطة بعمامة تتوسطها « شوشة » زرقاء ولا شك ان هذا



جامع الكتبية بمراكش



المدرسة البوعنانية بفاس

النوع من اللباس قد جاء به الى المغرب المهاجرون الاندلسيون على اثر النفي العام لان الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة في الاندلس قبل عهود المحنة الاخيرة حيث اجبر الاسبان العرب المنتصرين على التمييز بشارة زرقاء يجعلونها على قلانيسمهم وقد اضيفت الى القلنسوة و (الشوشة) الاندلسيتين الممامة المغربية وتوغل هذا الثالوث في الازياء الاستقرائية الى السنوات الاخيرة ولباس البياض في مناسبات وفصول خاصة عادة اندلسية ايضا فقد كان الاندلسيون يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان اي يوم العنصرة الكائن (في ست بقين في شهر يونيو) فيلبسونه حسب رواية المقرئ (النفج ج ٢ ص ٧٥٢) الى اول اكتوبر خلال ثلاثة اشهر متوالية ولا يزال كثير من المغاربة يتبعون هذه العادة التي يظهر انها دخلت من الاندلس الى الربوع الاوربية حيث يغلب نفس البياض في فصل الصيف .

وتقصير الشعر على النمط الحديث عادة طريقة ادخلها المغني زرياب الى الاندلس فقد كان الاندلسيون - رجالا ونساء - يرسلون جمتهم مفروقة وسط الجبين عامة للصدغين والحاجبين فقضت (موضة) زرياب بتقصير الشعر دون الجباه وتدويره الى الاذان واسداله الى الاصداع والظاهر ان هذه العادة لم تتركز في المغرب الذي ظل العنصر العربي فيه متأثرا بعادة العنصر البربري القاضية بالحلق الكلى بحيث لم يكن (يوفر) الا الاشراف وبعض العلماء والزهاد والصوفية ولكن على نسق شرقي قديم وقد تأثرت الحالة الفكرية بالمغرب تأثرا بليغا بالنهضة الثقافية الاندلسية ويقال بان المباريات الشعرية كانت تنتظم باسواق فاس اخر ايام المرينيين حسبما شهد بذلك رحالة اجنبي زار المغرب في ذلك العهد وكان هذا النوع من المباريات شيئا مالوفا معتادا في البلاد الاندلسية وقد ورد في عدة مصادر تاريخية ان كتب الادب الاصلية انما نقلها الى الاندلس ومنه الى المغرب رجال الفكر الاندلسيون - ولعل هنالك جانبا رواه المغاربة عن المشاركة راسا وهو الحديث والفقهاء - وقد تأثر الفقهاء المغاربة بالاسلوب العراقي في البحث فكانوا

يتخذون المدونة اساسا ويبنون عليها فصول المذهب بالادلة والقياس وكانت
مدينة القيروان تمتاز باسلوب خاص قوامه البحث عن الفاظ وتحقيق
ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات واستعراض وجوه
الاحتمالات .. وتتبع الآثار وترتيب اساليب الاخبار بينما كانت تغلب على
اهل الاندلس فيقهاء البلاغة في حسن رصف الكلام وانتقائه على انه وجد بين
المقاربة من انتهت اليهم صناعة التأليف في العالم الاسلامي كابن البنا
المراكشي .

وهكذا فلم تكد تنصرم القرون الوسطى ويبزغ فجر العصور الحديثة
حتى تولدت عن تفاعلات حضارتي العدوتين حضارة موحدة تطبعها روح واحدة
سداها التراث الشرقي الرصين ولحمتها عروبة متصلة واسلام مثالي
المبادئ مع الوان محلية براقعة تجمع بين طرافة المظهر ومتانة المخبر .

قريبا تصدر

دار السلمي ومكتبة ابن خلدون
كتاب معلم الكبار لمحاربة الامية تأليف محمد بن حدو
ترقبو صدوره واطلبوه من سائر المكاتب بالمغرب

رسالة الحضارة المغربية في حوض المتوسط

يحتل المغرب موقعا ممتازا في القارة الافريقية حيث يشرف على بحرين تركزت فيهما حيوية وحضارة ولكن هذا الوضع المحظوظ في قلب العالم الغربي لم يفت في اعضاد روح المغرب الشرقية التي عززتها وشائج شتى وطبعها الاسلام والعروبة بميسمهما النهائي .

ان المغرب الذي يتحلى منذ ازيد من الف سنة بالحضارة العربية ما زال نقطة وصل بين عالمين ومحورا جوهريا للروابط الدولية بين الشرق والغرب .

ويقبض المغرب - بفضل طنجة التي كانت عاصمته الدبلوماسية - على مقاليد غربي المتوسط بينما تشرف قناة السويس على شقه الشرقي ولذلك فان هذين الطرفين العربيين الذين يشرفان على مركز يتسم بحساسية نادرة في الوضع الدولي الراهن لابد ان يلعبا دورا مهما في حوض المتوسط الذي لا يمكن ان يتم فيه شيء بدون مساهمة - تركز على المساواة والسيادة - من طرف جميع الاقطار العربية التي تمتد حلقاتها من طنجة الى دمشق على طول ثلاثة اخماس ضفاف المتوسط تلك حقيقة ناصعة كان من المحتوم ان تفرض وجودها على الافكار الغربية حتى قبل (قنبلة فشتلر) .

المغرب قلب افريقيا النابض

هذا وقد تبلورت رسالة المغرب الافريقية في اشعاع بلغ تخوم النيجر جنوبا والنيل شرقا فقد شملت الامبراطورية المغربية منذ ايام المرابطين عاصمة الجزائر وامتد حكم الموحدين من قشتالة الى طرابلس الغرب محققا وحدة الاسلام للمرة الاولى في الربع الغربية ثم تركز نفوذ بني مرين الادبي فيما بعد في مصر وانبسط الحكم المغربي في السودان الغربي الذي عاش تحت ظل الدولة المغربية على عهد الشرفاء بواسطة عمال من الباشوات الى عام ١٨٩٣ م .

وبالجملة فقد كان المغرب محور ومصدر حيوية الامبراطورية التي قامت بالربع الافريقية الغربية وهذه الرسالة التي اضطلع بها المغرب الى عهد قريب كانت حقيقة قارة لا سيما وانه لم تعد هناك دولة عربية مستقلة في افريقية غير المغرب بعد عام ١٢٥٠ م حيث سقطت مصر نفسها تحت سيطرة الاتراك (راجع كتاب « العبقريّة العربية » لماكس فانتيجو) فالمغرب هو الدولة الافريقية الوحيدة التي امكنها ان تغالب الصعاب التي انبثقت في طريق تطورها والتي عرفت كيف تحتفظ منذ الفتح العربي بوحدة كيائها وباستقلالها . وهناك ظاهرة فذة في حوليات الامم الفتية وهي ان المغرب تمكن من توطيد وحدته السياسية حتى في بحبوحة الفوضى (ليفي بروفنصال)

وترجع تقاليد المغرب وطابعه الشرقي الى عهود عريقة في القدم فقد انهالت على المغرب منذ نحو الفين من السنين موجة من المهاجرين العرب انحدرت اليه من فلسطين فكانت نواة هامة في مجتمعه ثم جاء الفينيقيون العرب من غربي سواحل سوريا القديمة فعززوا وشائج العروبة بعالم مازيغ الذي وجد حتى في اللغة البونيقية ذكريات لهجته العربية العتيقة

ولعل هذا هو سبب نجاح البونيقية التي تغفلت في انحاء افريقيا الشمالية نحووا من سبعة قرون غب انهيار المراكز الفينيقية الساحلية ولم يزد الفتح الروماني هذه الرابطة الا قوة لان امراء البربر تقبلوا بصدر رحب الفلول القرطاجنية وما حملت معها من حضارة وكتب واساليب فنية (مالية وفلاحية) .

لفظة قرطاجنة عربية منحرفة ولفظة قرطاجنة نفسها معناها القرية الحديثة (قرية حداث) ولكنها استحالت - على طريقة التعطيش اللاتينية - كما قال توفيق المدني - الى قرطاش وقد ذهب بعض المؤرخين الى حد القول بان اللفظة البونيقية مهدت السبيل للغة العربية ومهما يكن فقد اثبت البحث الدقيق ان اللهجات البربرية تتضمن في قاموسها التقليدي بضعة الاف من الكلمات العربية القحة التي تمثل الجانب الحيوي فيها مما يدل على عراققتها وتغلغل اثرها في شتى مناحي الحياة .

ولسنا في حاجة الى ان نرجع للعهد الجاهلي لابرار الطابع الشرقي في المغرب اذ يكفي ان نلاحظ مع ميشو بيلير انه (عندما حمل عقبة بن نافع الاسلام الى المغرب للمرة الاولى تقبل السكان الدين الجديد كمصدر خلاص) وتحمسوا للفاتحين العرب فاعتبروهم محررين ذلك ان القادة العرب كانوا متاهلين لتفهم عالم مازيغ الذي لم تكن شكلية الاجتماعية وجهازه الاقتصادي يتنافيان مع حياة اعراب البادية على ان البرابرة وجدوا في الاسلام المرن السمع البسيط حوافز الوحدة التي حالت دونها فيما قبل عنصرية جهوية وعصبية قبلية هناك انبثق تيار جديد فاعاد الماء الى مجراه بين عالمين توأمين ولم يكد المغرب يتلقى العناصر الاولى للحضارة الشرقية التي نفحتها العبقرية العربية بروح جديدة حتى انصهر المغرب والشرق انصهارا نهائيا ما زالت رواسبه حية في القلوب منذ ثلاثة عشر قرنا بل لا تزيد مع توالي السنين الا رسوخا وتغلغلا فالمغرب الذي جرفت به حضارات شتى قد وجد اخيرا في مدينة العرب ولغتهم امثولته الخالدة وقد تجلت فاس منذ

الف سنة خلت بمثابة صورة حية لهواصم الاسلام فكانت - كما يقول كويتي - معجزة في الاقتباس من الشرق وما لبث الموحدون (البرابرة) ان طبعوا الحياة المغربية بخاتم شرقي نهائي رغم احتواء حضارتهم على الوان محلية خاصة .
نعم اصطبفت معظم كبريات المدن المغربية بالميسم الشرقي حتى شبه المؤرخون فاسا بدمشق والرباط بالاسكندرية ومراكش ببغداد واقتبس المفاربة اسماء بعض مدنها - كالبصرة - من التراث العمراني الشرقي .

وقد استوثقت روابط موصولة بين بغداد واناى تخوم الصحراء المغربية فكانت سجلماسة مهبط القوافل العربية المنحدرة من البصرة والكوفة وماوى التجار المشاركة الذين يتواردون للاستقرار فى اكنافها ويكفى ان تتصفح بعض مصنفات القرن الخامس والسادس (كالتشوف مثلا) لتلمس حيوية الرابطة بين الشرق العربي والبادية المغربية وقد ظل المغرب متجها نحو تقاليده الشرقية الى ان تبلورت ايام المرينيين فى شكل مؤسسات وطنية وهكذا امكن للمفاربة ان يحملوا طوال ثلاثة قرون مشعل الحضارة العربية فى المتوسط .
ان الانتماء للشرق هو الميزة الجوهرية فى حضارتنا بل هو عنصر ذاتى فى كياننا ولم تفت مجاورة اوربا الجغرافية فى وجهتنا المتمحضة نحو الشرق اذ هنالك وشائح قارة لا يقلص منها تنائي الديار وهي جزء من الروح لا تعرف التخوم والحدود الاصطناعية .

وخاصة هذا الجزء من العالم العربي الذي هو المغرب هي انه يمثل نقطة وصل مع اوربا وقنطرة بين الشرق العربي والعالم الجديد .

هذا وقد تجلت مظاهر رسالة المغرب فى البحر المتوسط من خلال ذلك التأثير الذي تركته حضارتنا فى الغرب والذي لم يكن لينصرم - ضمن تبادل موصول - لولا تلك الآفة الاستعمارية التي حولت من جراء مطامعها التوسعية مجرى تاريخنا فلو ان المغرب والغرب ظلا مستقلين سياسيا الواحد عن الآخر لا مكنهما ان يعززا تقاربهما فى نطاق روابط حرة وتناسق قار لان التعاون لا يمكن ان يثمر الا اذا جرى على اساس من المساواة وتبادل احترام السيادة

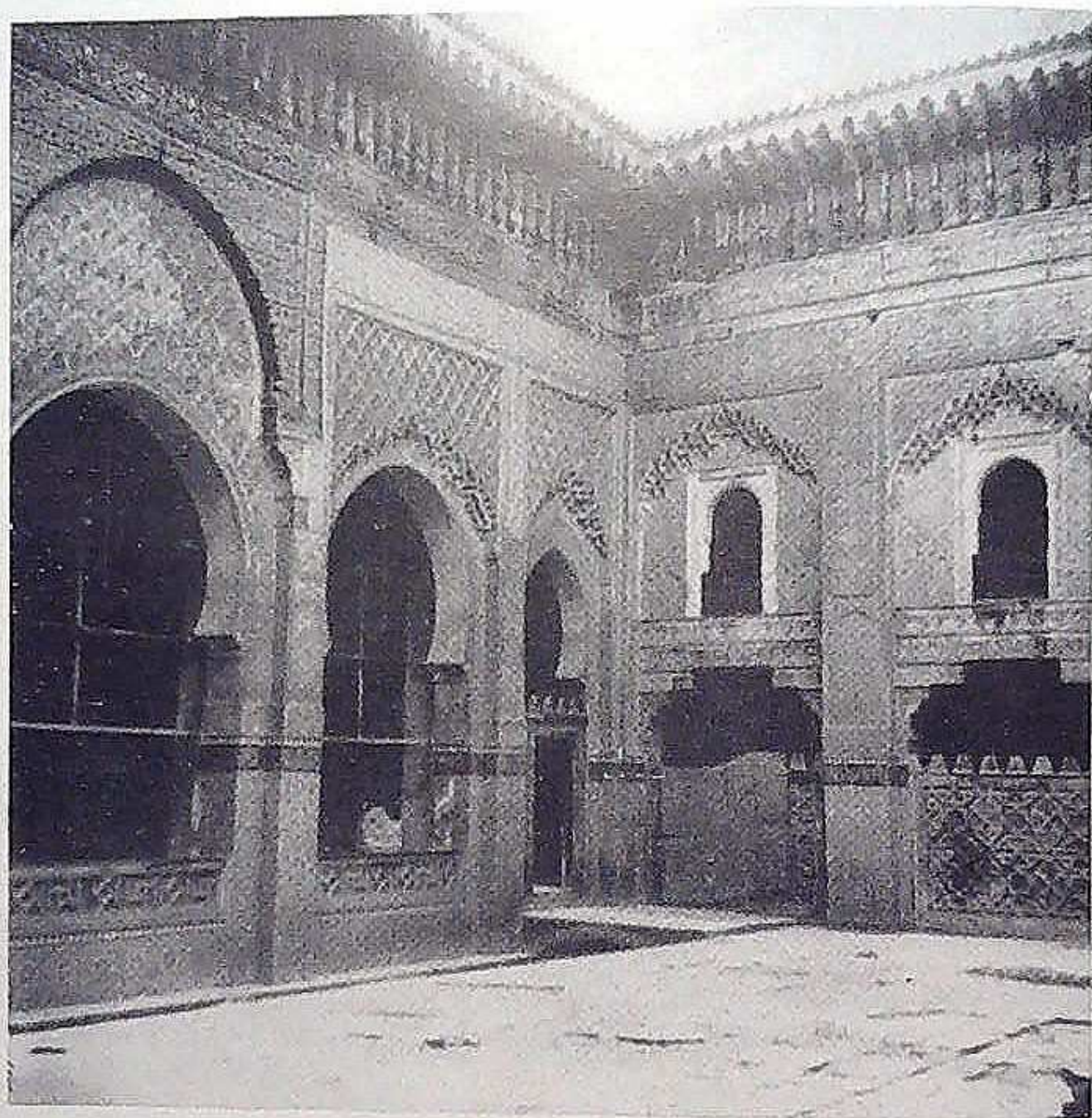
والكيان فحتى اذا سلمنا ما يزعمه بعض المؤرخين من وجود رواسب عاطفية ضد الاجنبي في نفوس المغاربة فان ذلك لم يكن ذاتيا وانما هو شيء عارض تمخض عن طغيان المطامع والدسائس الاوربية في البلاد .

ان النفسية العربية التي تجمع بين النبل والارحية لا تنفعل انفعالا سيئا الا ازاء ما يمس بكبريائها الوطني ويهددها في حريتها ورمز وجودها ففكرة الحرية عند الرجل العربي ليست معناها الفردية الانانية وانما هي توقان طبيعي نزيه لتحقيق الذاتية وحفظها .

فلهذا تبلورت رسالة المغرب في اشعاع ثقافي ممتاز اكثر منها في نفوذ مادي ومع ذلك فان قوة المغرب المادية ما فتئت سائدة في البحر المتوسط الذي كان رومانيا فاصبح طوال العصور الوسطى (بحرا عربيا) - كما يقول م ماكس فنتيجو - بجزره وسواحله واساطيله ونهضة تجارته وازدهار لغته القرآن هي اللغة الدولية للتجارة والعلم .

وقد اكد الكاتب الفرنسي المقتدر اندري سيكفريد عضو اكااديمية باريس ان العرب غرسوا في البحر المتوسط حضارة يانعة فطوروا الري وادخلوا غراسات جديدة كالقطن والارز وقصب السكر والحوامض (وبسببهم فقد البحر المتوسط طابعه المسيحي) .

ان الاشعاع المادي للقوة المغربية في المتوسط هو آخر ما نفكر فيه لا براز الرسالة التي اضطلعنا بها في هذا البحر ومع ذلك فان الاسطول الموحد الذي كان يضم اربعمائة قطعة ما فتىء ان اصبح اول اسطول في المتوسط (اندري جوليان) على ان المغرب قد تزعم العالم الاسلامي والعربي في هذا العصر مما حدا صلاح الدين بطل الحروب الصليبية الى الاستنجد بالاساطيل المغربية لاييقاف تقدم المسيحيين في طريق الشام وما لبث هذا الاسطول ان ضم ازيد من ستمائة قطعة حربية ايام ابي الحسن المريني . وسيادة العرب في البحر المتوسط ظهرت بوادرها ولما تمر على انبثاق الاسلام بضعة عقود فقد غزا معاوية بعض جزر المتوسط بالف وسبعمائة سفينة



الساحة الداخلية للمدرسة البوعنانية بفاس

ثم قامت الاوراش التونسية تعزز بانتاجها الجديد قوة الشرق العربي البحرية حيث صنعت في بعض ايام ابن نصير وحده نحو مائة قطعة وقد برهن المغاربة منذ القرن السادس الهجري عن حاسة استراتيجية مبكرة حيث ادرك عبد المومن بن علي اهمية جبل طارق الذي هو احد مفاتيح المتوسط فعمد الى تحصينه واحالته الى قاعدة امامية للدفاع عن المغرب والاندلس . ان رسالة الحضارة المغربية الحق في البحر المتوسط تتجلى في مظهرين اثنين هما التأثير الاقتصادي والاشعاع الثقافي على ان الدور الاقتصادي نفسه لم يكن في الواقع سوى نتيجة للنفوذ الادبي فسياسة التسامح التي نهجها المغرب في اغلب عصوره قد ساهمت في توثيق الروابط بين المسلمين والمسيحيين حتى اصبحت المراسي المغربية في سواحل المتوسط مصدر نشاط فياض فهي التي كانت ينبوع الاول للمبادلات مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وغيرها من موانئ اوربا وكانت هذه المبادلات تجري طبقا لنظام منسق لان المسلمين كانوا - حسب اعتراف اندري جوليان صاحب تاريخ افريقية الشمالية - اول من نظم المبادلات حسب مقتضيات التجارة الدولية وحسنوا اساليبها التي استمدتها منهم المسيحيون فيما بعد .

وقد اتسمت اذ ذاك الحضارة الاندلسية - التي اوضحت مصدر الهام اوربا في العصور الوسطى - (بمظهر ناصع زاده تالوا عودة الامن والطمأنينة في ظلال الموحدين) .

وقد اكد مسيو ماكس فنتيجو مؤلف المعجزة العربية (le miracle arabe) ان الحكومة الموحدية كانت من اشد الحكومات احتراماً للحرية وان الاندلس عرفت في عهدها عصرا ماجدا تالق فيه نجم المعارف والعلوم العربية التي سرى تيارها المنعش في جنبات اوربا نعم ان من مظاهر تلك المعجزة العربية تحقيق شعوب اوربا الغربية من ايطاليين وفرنسيين والمانيين وانجليزيين لذلك الانقلاب الفكري العظيم الذي تفتق عن عصر النهضة وقد سبق لكوستاف لوبون ان قال نقلا عن العالم الايطالي ليبري (لولا العرب لتأخر انبعث الاداب في اوربا بعدة قرون)



من بقايا المدافع البرتغالية التي غنمها المغاربة وهي تحمل
اسم سيستيان الذي هزمه المنصور السعدي في معركة
وادي المخازن

وقد عاشت الاندلس نحواً من ثلاثة قرون تحت ظل ملوك مراكش وفاس فكانت هذه الفترة من ازهر عصور تاريخها ولم يتصل الاوروبيون بالعلوم العربية الا عن طريق اسبانيا المسلمة التي برهن فيها تنافس العناصر العربية والمسيحية - كما يقول فنتيجو - (عما للثقافة العربية من تفوق غير منازع على الثقافة اللاتينية) وما لبث هذا الاشعاع العربي ان غمر شعوب الغرب فاثار كبريات العواصم ونشل مدن بيز وبولوني ومونبيلي وسلامانك وافينيون وباريس من وحشتها اللاتينية حيث فتح امامها مجال الفكر والحياة الثقافية كما قال فينيتيجو) ورغم انهزام الموحدين السياسي وعودة الاندلس الى حظيرة المسيحية ظل نفوذ الحضارة العربية يتزايد في نظر الغربيين (حتى صارت باريس نفسها التي اسس جامعتها الملك فيليب اوجست على اثر عودته من الشرق - تستمد من المغرب والشرق كثيراً من اكتشافاتها ليس اذن من الغريب ان لا يتجلى اثر الحضارة العربية في ذهن الاوربي المتوسط الا في فتوح اوقف تيارها شارل مارتيل في بلاط الشهداء ؟

والذي يزيد هذه الظاهرة غرابة ان الفتوح العربية لم تكن حركة توسعية ولا حرباً صليبية ضد المسيحية وانما كانت رسالة تمدينية لا تهدف الى اي لون من الوان الادماج ومن مظاهر تسامح ملوك العرب ونزاهة وجهتهم ان جوهن ملك انجلترا عرض عام ١١٩٩ على آخر ملوك الطوائف وهو محمد الناصر ان يحميه ضد البابا في مقابل جزية سنوية واعتناق الاسلام من طرف انجلترا ملكاً وشعباً ولكن الملك العربي رفض هذا العرض لان اريحيته ابت عليه استغلال الضائقة السياسية التي كان الانجليز يتخبطون فيها لحملهم على اعتناق الاسلام .

المغرب والعالم الغربي

المغرب هو القطر العربي الوحيد الذي يملك منفذا مزدوجا يطل على محيطين عالميين فحدوده تمتد في نحو من خمسمائة كيلومتر على طول سواحل بحر الظلمات وقد تعزز هذا الوضع الاستراتيجي في مفترق بحرين دوليين من اشد بحار العالم نشاطا يوم اصبح مضيق جبل طارق ممرا حيويا بين اقطار المتوسط والعالم الجديد .

المغرب صلة وصل بين عالمين

وما لبث المغرب ان اضطلع - بفضل هذا الوضع الممتاز - بمهمة الوساطة بين عالمين ذلك ان ميزة المغرب كقطر افريقي شرقي يطل على اوربا ومياه العالم الجديد قد جعلت منه نقطة اتصال وازدواج بين حضارتين مافتئتا تتفاعلان منذ قرون من اجل امداد الانسانية بلبائهما المختار ولعل هذه الميزة هي التي ساعدت على اشعاع حضارتنا فيما وراء البحار حيث تجاوبت اصداؤها في العالم الجديد منذ القرن السادس عشر بعد ان اخترقت مجاهل بحر الظلمات .

هل اكتشف العرب امريكا ؟

لقد زعم البعض ان العرب اكتشفوا امريكا منذ نحو من الف سنة وساق الاب انستاس الكرملي للتدليل على ذلك بعض الحجج منها وجود كلمات عربية في لهجات هنود امريكا وبقايا زنوج افارقة والشبه الملحوظ بين حضارة الاسلام ومظاهر الحياة في بعض المجتمعات هناك وقد اكد الشريف الادريسي ان الفتيان المغرورين وصلوا الى جزر منها اصور وقيل ان حكايات شهادتهم التي اصبحت مضرب الامثال في الاندلس هي التي حدث كريستوف كولومبس الى القيام برحلته على ان الاستاذ رنان قد اشار في دراساته حول ابن رشد

الى رسالة بقلم كولوبس نفسه اعترف فيها بان مصنفات ابن شد هي التي اوعزت له بوجود امريكا ومنذ قريب اكد الدكتور جيفريس الاستاذ في جامعة (ويتواتر ستراند) الذي انكب على دراسة هذه القضية منذ سنوات ان العرب هم الذين اكتشفوا امريكا قبل كريستوف كولومبوس بنحو من ثلاثة او اربعة قرون كما يتبين ذلك من هياكل وقع العثور عليها ويقول الاستاذ بانه عند ما وصل كريستوف الى امريكا وجد جماعة من الزنوج الذين فروا من اسيادهم العرب وهو يرى ان المزروعات الافريقية دخلت الى امريكا على يد العرب وان العرب هم الذين نقلوا كذلك المزروعات الامريكية الى اوربا وهذا يفسر لنا - في نظره - سبب اشتهاار الذرة في اوربا بالقمح الامريكي .

الاوراش المغربية في السواحل الاطلسية

ومهما يكن فهناك ظاهرة قارة في تاريخ المغرب وهي ان المغاربة والاندلسيين جالوا في جوانب المحيط الاطلسي ولعبوا دورا هاما في بعض جزره حيث كانت لهم جاليات مهمة على ان المغرب تحمل القسط الاوفر - طوال بضعة قرون - في الدفاع عن حوزة السواحل العربية المطلة على المحيط من اشبونة الى اكادير وكانت له اوراش واساطيل غير انه قلما كان يستخدم المياه الاطلسية في ربط صلة الوصل بين العدوتين لان مضيق جبل طارق كان اقرب واسهل .

وقد اشعت الحضارة العربية الى الصدر الاول من السواحل الاندلسية خاصة فكانت المربة اعظم ورش بحري في عهد الامويين ثم انبثقت اوراش اخرى اشار اليها الشريف الادريسي في نزهته كالجزيرة وقصر ابي دانس وطرطوشة ثم ما لقا بعد ذلك وقد حاول الدنماركيون اكتساح الاندلس عام ٩٦٦ م ولكن ملك اشبيلية صدهم باسطوله الذي كان يمخر عباب المحيط وقد ابى جميع ملوك الطوائف الا ان ينشئوا اساطيل على غرار الاسطول الاموي تجول قطعها في كل من البحر المتوسط وبحر الظلمات وكذلك بنونصر في غرناطة

علائق المغرب بأوروبا الاطلسية

غير ان العلائق التي توثقت فيما بعد بين المغرب وبعض دول المحيط كالدنمارك والسويد وانجلترا وهولندا حدثت الى الاهتمام بمراسيه الاطلسية وقد كانت هولندا اولى الامم الاطلسية التي تبلورت روابطها مع المغرب في مبادلات عبر المانش لا سيما بعد معاهدة 1610 التي اعطتها الاسبقية وكانت اهم مراسي المغرب اذ ذاك هي اسفي واكادير وماسة ثم اصبحت سلا انشط ميناء بالمغرب وظلت محتفظة بهذه الميزة طوال قرن كامل وعند بزوغ فجر الدولة العلوية حرر المولى اسماعيل بعض موانيء الشمال كطنجة والعرائش واصيلا من ربقة الاجانب فساهمت هذه المراكز الجديدة في تعزيز رسالة المغرب في المحيط الاطلسي تلك الرسالة التي اكتملت بعد بضعة عقود من السنين بتأسيس الصويرة على يد المولى محمد بن عبد الله وما لبث هذا الميناء الجديد ان احتكر مجموع النشاط التجاري المغربي ففي عام ١٧٤٥ اصدر المغرب الى المحيط الاطلسي عن طريق الصويرة ٨٥.٠٠٠ طن من القمح والقطاني وفي سنة ١٧٥١ تضخمت حركة الميناء فبلغت قيمة روجانه ما يقرب من ستة ملايين فرنك وهو مبلغ له خطورته في ذلك العصر وقد زار المراسي الاطلسية في تلك السنة ٢٢٣ باخرة اوربية وظلت مراسي الصويرة مكتملة النشاط الى عام ١٩١١ حيث زارها ٤٦٢ باخرة وكان الميزان التجاري المغربي مزدهرا اذ ذاك لان الصادرات بلغت في هذه الاونة ثلاثة اضعاف الواردات .

تلك شواهد نوردها لدحض ما يزعمه البعض من ان المغرب عاش منطويا على نفسه نعم اضطر احيانا لاتقاء الدسائس الاروبية بالانزواء والقبوع بل بلغت مضايقة بعض الاقطار اللاتينية مبلغا حداه الى قصر علائقه على بعض الامم البروتستانتية المحاذية لسواحل بحر الظلمات كانجلترا والسويد والدنمارك التي امضى معها معاهدات تجارة ووداد وهذا يدلنا على ان النفرة الدينية لم تكن هي الباعث على انعزال المغرب عن اوربا ومع ذلك فلا يبعد

ان يكون ملوك المغرب قد ظلت عالقة باذهانهم ذكريات تحريض البابوية والدول الكاثوليكية التابعة لها على اكتساح المغرب باسم الصليب ومهما يكن فان هذا القبوع يرجع في نهاية الامر الى رغبة المغرب في التحصن ضد الحركات التوسعية التي بدأت بوادرها تظهر في بعض سواحل المتوسط الافريقية .
وقد امضى السلطان سيدي محمد بن عبد الله قبل وفاته ببضع سنوات (١٧٨٦) معاهدة تجارة وملاحة مع الولايات المتحدة لمدة خمسين سنة وقع تجديدها عام 1836

المغرب وعالم ما وراء المحيط الاطلسي

فالمغرب لم ينغزل اذن عن العالم المصري ولم يهمل كذلك تطور السياسة الاوربية الامريكية بل تتبع بكامل الاهتمام واكيد العطف حركة تحرير شعوب ما وراء الاطلسي وقد كان المغرب في طليعة الدول التي اعترفت باستقلال جمهورية الولايات المتحدة الفتية .

كيف غزت حضارتنا العالم الجديد

ومنذ القرن السادس عشر امكن للحضارة المغربية التي كانت الى ذلك التاريخ منحصرة في البحر المتوسط الا ان تدخل الى امريكا الجنوبية بواسطة الغزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا اذ ذاك العالم الجديد فقد تلقت البرازيل مثلا طوال ثلاثة قرون متوالية تاثير المدنية الاندلسية فاسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الامريكية بطابع مغربي ينمو ويضعف حسب الاصقاع فتقنعت المرأة البرازيلية على طريقة زميلتها المغربية وكيفت اسلوب حياتها . كما فعلت المرأة الصقلية المسيحية فيما حكاه الرحالة ابن جبير تكييفاً يحذو حذو النمل بالنمل ما عهد في الاندلسيات والمغربيات نعم اصبح الشيء الكثير في البرازيل صورة لما كان عليه مجتمعنا في العصور الوسطى من اناقة النساء الارستقراطيات في الحواضر واتخاذهن الطنافس الوثيرة للجلوس بدل المقاعد الخشبية الى غير ذلك من طرائق الحياة الفردية ومناهج الفلاحة والغراسة في البادية فبالرغم عن اختلاف الطقس

استخدم الفلاح الأمريكي أجهزة واساليب
الفلاحة المغربية وانتشر استخدام الطواحين الهوائية في مجموع أنحاء
أمريكا الجنوبية مع جميع ما ينطوي عليه نظام الري عندنا (السواقي والأباراخ)
وقد نقل المعمرون البرتغاليون إلى أمريكا جميع ما أنجزه المغاربة في القسم
الجنوبي من الأندلس من مصانع السكر والقطن إلى مزارع الحوامض ودودة
القر (كانت 3060 قرية أندلسية تتعاطى تربية دودة القر) على أن اللغة
الإسبانية الأمريكية تنم عن الآثار التي تركتها حضارتنا في الميدان الثقافي
والاقتصادي والاجتماعي بأمريكا فالاصطلاح الأمريكي في المياه والسقي
والري معظمه عربي وكثير من الأزهار والنباتات العطرية ما زالت تحمل في
إسبانيا وأمريكا أسماء عربية أضف إلى ذلك ما يمس (مودة) النساء من
أسماء الحلي والمصوغات .

والشبه وثيق بين المغرب وأمريكا الجنوبية في ميدان الهندسة المعمارية
حيث لا تختلف في البلدين أساليب البناء في الكنائس والأديرة والمنازل والحمامات
أيضا تأثر الاصطلاح الأمريكي بالمفردات العربية .

ويضيق المجال عن تعداد المناحي التي تجلت فيها آثار الحضارة المغربية
والأندلسية بأمريكا فحتى أساليب الطبخ وأسماء العائلات لا تختلف في أمريكا
عنها في المغرب ووحدة أصول العائلات العربية تفسر لنا نجاح الهجرة العربية
إلى أمريكا لا سيما العناصر السورية واللبنانية التي ساهمت مع المغاربة
منذ العصر الأموي في تكييف الحضارة الأندلسية مما جعلنا نلمس من
جهة أخرى وجوه شبه عديدة بين كثير من المؤسسات السورية
والمغربية .

ويتمتع المغربي في أمريكا الجنوبية بسمعة طيبة فهو مثال النشاط والمثابرة
والذكاء وقد اشتهر المغاربة كملاحين مهرة وليس ذلك ببدع فإذا كانت
البحرية البرتغالية قد استطاعت أن تمخر عباب بحر الظلمات وأن تصل إلى

امريكا فما ذلك الا بفضل اساليب الملاحة العربية فالاندلسي ابن ماجد الملقب
(باسد البحر الهائج) صاحب المصنفات العديدة في قيادة السفن هو الذي
كان ربان الرحال فاسكو دو كاما (1469 - 1524) الذي اكتشف عام 1498
طريق الهند وقد مهر مغاربة آخرون في هذا الفن منهم عبد العزيز بن احمد .
تلك بعض المظاهر التاريخية لرسالة المغرب في المحيط الاطلسي وهي
رسالة اصبحت في الظروف الدولية الراهنة اشد واقعية من اي وقت مضى .



قريبا تصدر :

دار السلمي ومكتبة ابن خلدون

كتاب التربية الوطنية للقسم الابتدائي الثاني وفق المنهج الذي
قررتة وزارة التهذيب الوطني بالمغرب .
فاطلبوه من سائر المكاتب بالمغرب

اللغة العربية و تأثيرها الحضاري في المغرب

اتفق النسابون على ان القبائل البربرية ترجع الى ارومتين مهمتين وهما برنس ومادغيس (الملقب بالابتر) بحيث لا يوجد من بين البرابرة من تخرج عن ذينك الاصلين فهم اما برانس كالمصامدة وصنهاجة وكتامة او بتركنفوسة وضريسة وقد ذكر بعض المؤرخين ان البرانس من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام والبتري من ذرية بر بن قيس بن عيلان بن مضر من ذرية سام ونقل ابن خلدون وغيره ابياتا ينسبها علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي منها :
الا ايها الساعي لفرقة بيننا * توقف هداك الله سبل الاطايب
فاقسم انا والبرابر اخوة * نمانا وهم جد كبير المناصب
الى ان قال :

فنحن وهم ركن منيع واخوة * على رغم اعداء لثام المناقب
وحكى ابن ابي زرع والبكري ان بر المذكور وامه يريغ بنت مجدول البربري وان قبائل البربر كانت تسكن الشام وتجاور العرب في المساكن والاسواق والمراعي وتشاركهم في المياه والمسارح وتصاهرهم فازداد العنصران بذلك امتزاجا وتداخلا منذ اقدم العصور فالبتر عرب مضيون والبرانس اغليبيتهم من عرب اليمن . وقد انتقد ابن حزم كون صنهاجة وكتامة من حمير وتبعه في بعض نظرياته صاحبنا نشر المثاني والبدور الضاوية ولكن جمهور المؤرخين والנסابين صرحوا بنسبتهم الى عرب اليمن كالمسعودي والجرجاني والطبري وابن الكلبي والسهيلي واعترف ابن خلدون بان هذا هو المشهور عند نسابة العرب .

وقد نص كثير ممن درس تاريخ البربر انهم قدموا من آسيا فمروا بمصر ثم بليبيا ودخلوا الى المغرب حيث وجدهم فجر التاريخ فكانوا بذلك اول من استوطن هذه الديار بعد العصر الحجري .

وكان أبناء عمهم الكنعانيون سكان فينيقيا (اي بلاد لبنان الحالية) قد اسسوا اذ ذاك حضارة شامخة البنيان واخترعوا حروفا هجائية يكتبون بها ويصنفون كما اخترع البربر انفسهم احرفا ايام كانت الكتابة لاتزال هيروغليفية اي عبارة عن مجموعة من الصور تجتمع وتفرق تبعا للمعاني المراد التعبير عنها .

وكانت لغة الكنعانيين عربية لا يميزها عن لغتنا الفصحى الا هلهلة الاعراب وهنا يحق لنا ان نفتح باب التساؤل عن ماهية اللغة التي كان برابرة الشام (الذين هجروا الى المغرب) يتكلمون بها فيما بينهم ويتخاطبون بها مع جيرانهم وابناء عمهم الكنعانيين سكان السواحل الجنوبية التي تتكون اليوم منها بلاد لبنان ؟ هل كانوا يتكلمون اللغة العربية التي هي لغة الكنعانيين الاصلية ام كانوا يتكلمون لهجة تغايرها ؟ ان الاجابة بالضبط عن هذا السؤال متعذرة لان النصوص التاريخية الضرورية تعوزنا ولكن الذي يغلب على الظن هو ان الكنعانيين والبرابرة لم يكونوا ليتكلموا الا لغة واحدة لسببين اثنين اولهما جنسي والثاني ترابي فهم من جهة أبناء عمومة وتجمعهم من جهة اخرى بقعة واحدة من بقاع الشرق الادنى ولا يخفى ايضا ان البرابرة في الشام كانوا من القبائل الرحل التي تنتجع الكلاً في السفوح والهضاب الفينيقية فكانت تتصل ضروريا بالفنيقيين الذين كانوا من جهتهم يتوغلون في سهول الشام وسواحلها من اجل التجارة ولا شك ان الكنعانيين العرب كان من بينهم فريق اختار الفلاحة على التجارة فكانت تجمعهم ببربر الشام المراعي والمياه واسواق البادية المشتركة . كل هذه عوامل تجعلنا نعتقد ان البربر كانوا يتكلمون في الشام لغة عربية او قريبة من العربية وانهم نقلوا تلك اللغة معهم واللهجات البربرية المستعملة اليوم في المغرب تحتوي على الفاظ عربية محرفة تحريفا بسيطا وتتضمن الى جانب ذلك نتفا من لهجات عتيقة ربما استمد البربر بعضها من السكان الافارقة الذين اتصلوا بهم عند ما هاجروا من مزابهم الشمالية الى البلاد الليبية على ان في اللغة البربرية كلمات لا يدرك اصل اشتقاقها الا بعناء

زائد ونجد في اللغة البربرية كلمات عبرية دخلت اليها في نظرنا من ناحيتين اثنتين : عن طريق الحضارة العبرية التي كان لها اثر في مصر وبعض سواحل المتوسط وعن طريق بعض البرابرة الذين اعتنقوا الديانة الموسوية وادخلوا بعض تعاليمها وعباراتها المقدسة الى قلب القبائل البربرية وقد وجد الفاتحون العرب طوائف اسرائيلية في بحبوحة بلاد البربر تدين كلها بالديانة اليهودية كقبيلة الكاهنة (ويلاحظ ان لفظة كاهنة كانت معروفة في اللغة العربية) .

وقد دخل الكنعانيون العرب الى المغرب دخولا رسميا (لان اشتاتا منهم كانت قد دخلت قبل ذلك) عام 480 قبل الميلاد - فازداد امتزاجهم بابناء عمهم البربر وتكونت في افريقيا الشمالية اذ ذاك لغة تسمى باللغة البونيقية (Punique) هي خليط من الفينقي والعبري وكانت هذه اللغة - حسبما تشهد بذلك الواح اثرية سلمت من عوادي الزمان - قريبة من اللغة العربية الفصحى بل اقرب اليها من لهجات عدة شعوب عربية اليوم . ويحدثنا المؤرخون ان اللغة البونيقية كانت لغة علمية دونت بها المعارف والفنون ولكن الاحتلال اللاتيني لسواحل المتوسط عفى على هذا التراث بعد احراق الرومان لعاصمة قرطاجنة ودرس معالم حضارتها فكان الطفيان اللاتيني جنابة فظيعة على الانسانية بوجه عام وعلى العروبة بوجه خاص .

وقد ظلت الحضارة الكنعانية متمكنة من قلوب البربر اثناء الحكم الروماني لان الكنعانيين كانوا من بني عمومتههم ولان علاقة الكنعانيين بالبربر لم تكن علاقة سيطرة واستبداد وسيد بمسود حيث ان الكنعانيين - الذين لم يدخلوا الى المغرب الا بقصد الاتجار - تركوا مقاليد الامور بيد ابناء البلاد فاستمرت ذكرياتهم الطيبة عالقة باذهان هؤلاء - . ذلك ما يخص دخول الكنعانيين الى المغرب وانتشار اللغة العربية في ربوع البلاد عن طريقهم .

فهل دخلت عناصر عربية أخرى الى المغرب قبل التاريخ اوبعده ؟ وما هو
حظ (اسطورة) دخول العرب اليمنيين الى هذه البلاد من الصحة ؟ وماذا كان
تأثير ذلك في (تعريب) افريقيا الشمالية ؟

صرح سان اوكوستان (Saint-Augustin) بان اللغة البونيقية ظلت
متغلغلة في انحاء البادية المغربية الى عهد الوندال اي الى عهد الفتح العربي
وذكر غيره ممن تصدى لبحث اثر الحضارة اللاتينية في المغرب - ان لغة الرومان
اندرست كليا في البلاد لان الحضارة اللاتينية لم تجد في قلوب سكان المغرب
المشاركة موطننا تاوى اليه ولا يخفى ان الاستعمار الروماني لم يستطع ان
يخلق لا في الشرق ولا في الغرب اثناء العهد الامبراطوري سوى هيكل اداري
سطحي بينما استطاع في الاقطار الاوربية التي استعمرها كبلاد الفول (فرنسا)
وبلاد الاسبان ان يتغلغل في اعماق المجتمع ويؤثر في نفسية النخب والجماهير
وتعفى لغته الرسمية - التي هي اللغة اللاتينية - على اللهجات المحلية طابعة
اياها بميسم روماني عميق وقد اعترف بهذه الحقيقة رجل طالما حاول الحط
من كرامة المغاربة والمشاركة معا وتشدق بما يسميه (غريبة) المغاربة وهو
كوتيسي صاحب كتاب « العصور الفامضة في تاريخ المغرب »
(Siècles obscurs dans l'Histoire du Maghreb) وكتاب « عوائد
المسلمين واعرافهم » (Mœurs et coutumes des Musulmans)
وقد كان لدخول العرب اليمنيين الى المغرب تحت قيادة زعيمهم افريقش
الحميري اثره في توطيد لغة الضاد في هذه البلاد قبل الفتح الاسلامي بقرون
ولعل دخول افريقش هذا كاد ان يكون من قبيل المرجح لا سيما بعد
الاكتشافات الاثرية التي دلت على ان اللغة الحميرية لعبت دورا مهما في
تاريخ افريقيا الشمالية . ولكن ابن خلدون حاول نقض ما يسميه
بعضهم (باسطورة) الهجرة الحميرية تابعا في ذلك ابن حزم الذي صرح بانها
من وضع مؤرخي اليمن وقد استدلل ابن خلدون على ذلك بان اليمنيين لم
تكن لهم طريق يهرون عليها الى المغرب غير مصر التي كانت بها اذ ذاك دول

تأبى عليها سيادتها ان تسمح لافواج اجنبية بالمرور عبر ترابها ولعل هذا الاحتجاج ضعيف ان لم نقل مهمل لانه لا يبعد ان يكون التبابعة ورعايهم قد هاجروا الى المغرب في فترات متعاقبة وحدانا او جماعات قليلة لا يسترعي مرورها النظر وما يدريك لعل افريقش دخل على رأس احدى هذه الفئات وليس بعيد ان تكون هنالك محالفات قديمة بين مصر واليمن فسحت لرعاياهما مجال المرور في البلدين على ان طريق مصر كانت هي الطريق الرسمية المالوفة ولم تكن الطريق الوحيد نعم كان من الصعب الدخول الى ليبيا من الجنوب بعد عبر المضيق البحري الفاصل بين القارتين الافريقية والاسيوية ثم محاذاة اطراف الحبشة او السودان ومصر للاتحاق بالصحراء الليبية ولكن اذا كان من قبيل الصعب فانه لم يكن بمتعذر على همم اذكتها روح المغامرة كههم الحميريين سكان ساحل الجزيرة العربية. على ان ابن خلدون ناقض نفسه بنفسه فنفى ما ذكره في المقدمة بما اثبتته في كتاب العبر حيث اكد في الجزء السادس ان المشهور هو ان صنهاجة وكتامة من اليمن وان افريقش لما غزا المغرب انزل الفريقين بها ثم عقب على ذلك مؤكدا ان الصنهاجيين والكتاميين يمنيون حقيقة (ص 97) وقد حكى في مواضع اخرى اتفاق المؤرخين على غزو افريقش بن صيفى المغرب ومن جملة من ايد هذا الغزو الجرجاني والمسعودي وابن قتيبة والطبري وابن الكلبي .

وقد اورد البكري في مسالكة وصاحب الاستبصار ما يفيد ان قرطاجنة كان من بين آثارها قبر مكتوب عليه باللغة الحميرية واكتشفت اخيرا نقوش في بعض مداشر تونس كما وقع العثور منذ سنوات فقط على خط بربري قرب دكاك له شبه قوي بالخط الحميري وهذا يدلنا على مبلغ تأثير اسلوب الكتابة العربية منذ اقدم العصور في الكتابة البربرية وقد ذكر ميشو بيلير في محاضراته (ص 269) ان قواعد النحو البربري قريبة من القواعد العربية . ولا تنحصر هجرة العرب الى المغرب قبل الاسلام في الكنعانيين والحميريين فقد اكد شلوش في مقال له بالوثائق المغربية ان فلولا من سكان خيبر العرب

انتقلوا الى افريقيا والمغرب على اثر الهجرة النبوية وانبثوا في الاصقاع
الافريقية بينما هاجر آخرون الى الشام والعراق وغيرهما وقد اشار ميشو
بليز الى هذه الرواية فذكر انها تؤكد ما يتناقله المؤرخون من أن البربر
المغاربة اصلهم من الشرق ثم اوضح - بناء على مشاهداته في الربوع
الاطلسية - ان معظم البرابرة يعتقدون انهم مشاركة الاصل .

وقد ذكر كوتيبي في كتابه «ماضي افريقيا الشمالية» (ص 148) نقلا عن
كزيل ان القرطاجنيين كانوا يلبسون بالمغرب اللباس الشرقي اي القميص
الطويل بدون حزام والطربوش وتحتة راس حليق ولحية مستطيلة وعيونهم
مكتحلة وشعرهم مخضب بالحناء وكانوا يختنون كالفنيقيين
ويستعملون السجود في صلاتهم ويحرمون اكل
الخنزير . وقد اكد ايضا في صحيفة 157 ان في قسم كبير من المغرب كان
الناس يتكلمون لغة قريبة من العربية ويفطون رؤسهم كما يفكرون ويشعرون
على طريقة الشرقيين منذ ما يقرب من ثلاثة الاف من السنين . غير ان
اللغة العربية التي نقلها المهاجرون العرب الى افريقيا الشمالية في اطوار
متعاقبة اعتورها تحريف عميق كما اعتور مثلا اللهجة المصرية التي تكاد
تند معاني الفاظها عن افهام باقي الشعوب العربية .

ولكن لا تزال الى الان في لهجات البربر الفاظ ظاهرة المصدر العربي
ككلمات الماء (امان) والدم والحياة والموت والاب والام والجد والعم والخال
وهذه كلها كلمات ضرورية في الحياة بل هي من ابرز مقومات اللغة في
المجتمعات البشرية ومنذ كان البرابرة وهم يستعملون هذه الالفاظ في
مخاطباتهم اليومية اذ لا توجد في مختلف لهجاتهم كلمة يستعاض بها عما
ذكر .

واغرب ما في الامر ان معظم الالفاظ العربية التي اندمجت في البربرية
عريقة لا تكاد تستعمل كلفظة اخف التي معناها مقدم الراس والتي استمدتها
البربر من كلمة يافوخ العربية وهناك لفظة اخرى تؤدي نفس المعنى وهي

اقلال التي يرجع اصلها الى لفظة قلة ويستعمل البربر الى الان كلمة اكريم للدلالة على الفاس الذي يسمى بالعربية القلزم وهذا يدلنا على ان تلك الالفاظ انتقلت الى اللسان البربري في عهود سحيقة ايام كان استعمالها جاريا حتى بين الرعاع والدهماء اي في عصور الجاهلية .

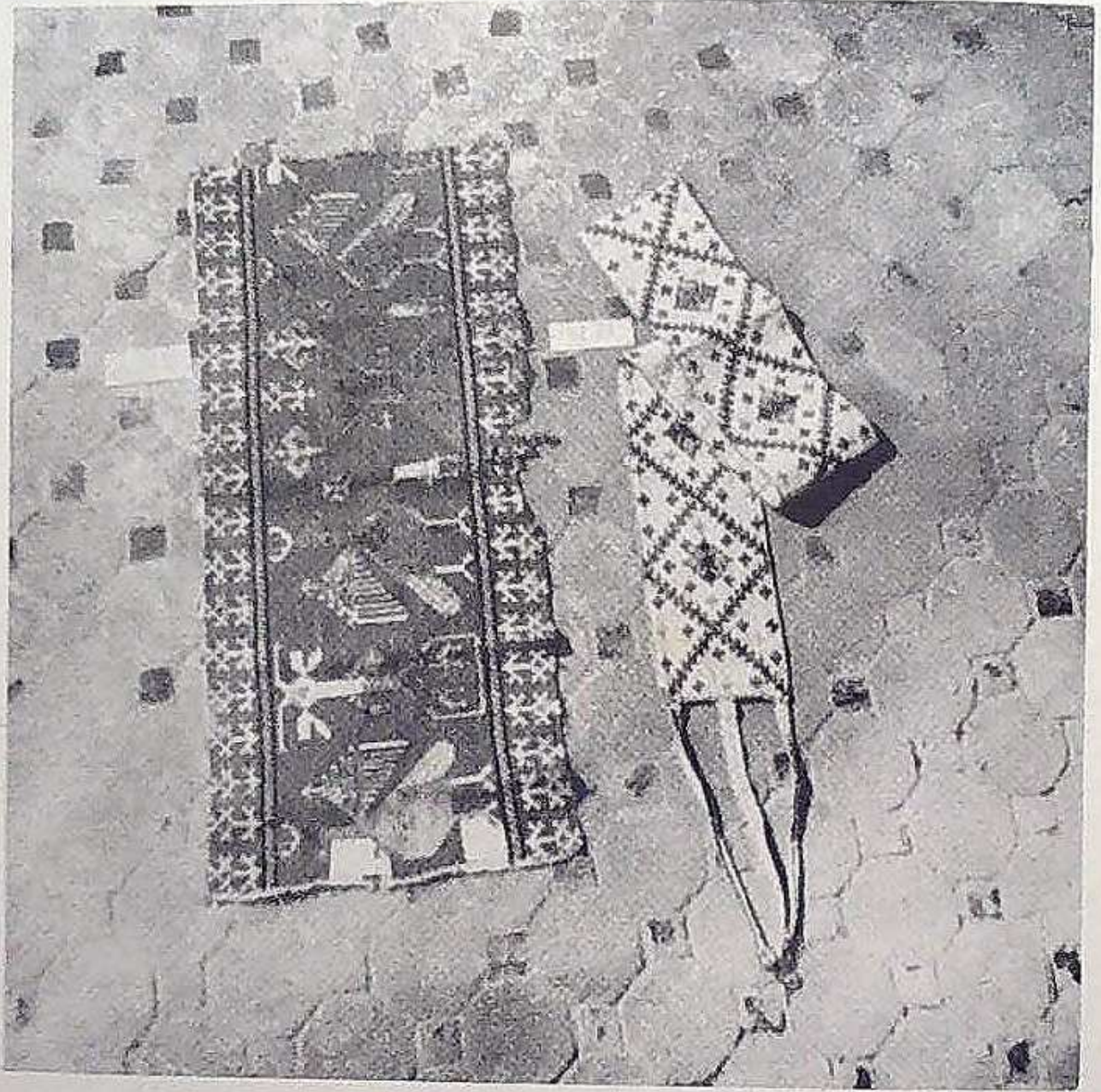
ويرجع اصل لفظة ازرو البربرية الى كلمة اصر العربية ومعناها الحجر ولا تخفى العلاقة الطبيعية بين هذه التسمية وبين طبيعة تراب ناحية ازرو حيث تغلب الصخور الحجرية على غيرها وازبل باللسان البربري معناه الشعروهو السبلة بالعربية تجمع على سبال ومنها جاءت ازبل (والقائف اي الكاهن يسمى في البربرية بانقفي والدرع بتدرعت والملحفة بتملحفت والدالية باضيل واللسان بالسن والمنخر بتنخر والاديم بادم والجدي باعجد وهكذا . وقد انتقلت عبارات بنصها من العربية الى البربرية ولكن الاستعمال حرف شكلها تحريفا عميقا مثال ذلك العبارة العربية (ساقطع تربه) التي صارت في اللسان البربري « ادبيغ تربيات نس » فتربيات معناها التراب وادبيغ من اب او تب او جب اي قطع اما لفظة نس فهي من الروابط والملحقات البربرية .

اما النحو البربري فقد اندرجت فيه ادوات عربية مثل كاف الخطاب وما الاستفهامية (ماتريت اي ماتريد ؟) وكلمات اخرى ككان التي صارت في اللسان البربري اكا على ان هنالك ظاهرة اعمق وابلغ وهي وجود حرف الضاد في اللهجة الشلوحية (تشلحت) ويسمونه اضاد ولا يخفى ان هذا الحرف كادت تنفرد به اللغة العربية التي سميت بلغة الضاد .

اما فيما يخص التطورات التي وقعت بعد الفتح الاسلامي فان حملة عقبة بن نافع على المغرب كانت خاطفة لم تتمكن العناصر العربية خلالها من الانتشار والتركز وكان عدد الفاتحين ضئيلا استشهدوا جميعا في مأساة تهودة الشهيرة وظل الاسلام بين مد وجزر طيلة قرن يفزو بمبادئه السياسية

اكثر مما يغزو برجاله وكانت لغة القرآن اثناء هذه الفترة حركة في السنة طائفة غير قليلة ممن شغفهم الدين الجديد فاكبوا على تعليم العربية وتخرج من صفوف البربر اذ ذاك مستعربون امثال طارق بن زياد الذي خطب على اجناده البرابرة بلغة الضاد يوم فتح الاندلس . ولم يكد المولى ادريس (دفين فاس) يشارف العقد الثاني من عمره حتى جمع حوله من العرب الاقحاح واناط بهم مهمة نشر اللغة العربية بين البربر وتعليم القبائل المنضوية تحت راية الادارسة - شعار الدين الحنيف وكان الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز قد اوفد قبل ذلك (في المائة الاولى) اساتذة وفقهاء الى افريقية لتلقين البرابرة لغة القرآن وتعاليم الاسلام -

ويحدثنا التاريخ ان اللغة العربية سارت في اعقاب جيوش المولى ادريس فتركزت حيث تركزوا وترعرعت حيث ترعرع الاسلام واذا كان سكان جباله يتكلمون كلهم اليوم بالعربية وكذلك قسط من غمارة وبلاد الريف فان الفضل للادارسة وقد اعترف بهذه الحقيقة ميشو بيلير في البحث القيم الذي كتبه عن الريف على ان الفضل في تعريب برابرة الريف لا يرجع للادارسة وحدهم فان صالح بن منصور الحميري لم يكد يفتح تسمان حتى اقطعه اياها الوليد بن عبد الملك فاسس دولة عربية في المغرب سميت بعد ذلك بدولة بني صالح او مملكة نكور (ونكور هذه مدينة اسسها ادريس بن صالح واتم بناءها ولده سعيد) وظلت هذه الدولة قائمة الاركان ثلاثة قرون ساهمت اثناءها في نشر اللغة العربية لا في الريف وحده بل في باقي ربوع المغرب حيث رفعت لواء المذهب المالكي وقاومت تيار الخوارج في صف الادارسة . وقد ورد في كتاب (نصوص عربية في تكروننة) (مقدمة الجزء الاول) ان لجباله ببلاد الريف لهجات يرجع اصلها للغة المراكز الحضرية القديمة اي المراكز الدائمة لتعليم اللغة العربية . وقد تدفق على افريقيا علماء وفقهاء كاسد بن الفرات ودعاة الخوارج في القرن الثاني ودعاة الشيعة الفاطميين



قماط للصبيان

في القرن الثالث فكان ذلك عاملا قويا في توطيد اللغة العربية وتوسيع نطاق الميادين الشاسعة التي سبق لها ان غزتها في قلب الجبال الاطلسية .

وابرز الوسائل التي تدرع بها الغزاة لنشر لغة القرءان هي فتح كتاتيب لا سيما في القرن الثاني ايام ولاية عمال الدولة العباسية في افريقيا على ان تاسيس الرباطات في مداشر الساحل مند اواخر المائة الثانية لم يكن اقل مفعولا في نشر القرءان والدعوات والاذكار بلغة الضاد في اواسط البربر الذين كان في صيغتهم الفطرية شغف بالروحانيات وقد حدثنا البكري عن آثار تلك الرباطات وكتب في شأنها جورج مارسى (G. Marçais) فابرز مهمتها التهذيبية زيادة على الدور العسكري الذي قامت به ولا يخفى ما قام به عبد الله بن ياسين في رباطه بناحية نفيس وما قامت به كذلك في القرون الرابع والخامس والسادس رباطات اولاد امغار الصنهاجيين في تيط ومولاي بوشعيب في ازموور وابي محمد صالح المصمودي في اسفي واصحاب رباط شاكرو ورباط تينمال دار الموحدين وزاوية ابي النور المشتراي شيخ ابي شعيب ايوب بن سعيد وزاوية بن حرزهم تلميذ ابي حامد الفزالي واهل مدينة العباد (قرب تلمسان حيث مدفن ابي مدين الفوثن) في ميدان تثقيف الجماهير البربرية ونشر تعاليم الاسلام بلغة العرب في مجاهل الاطلس .

وهنا يجب ان افتح قوسين لدحض ما ادعاه ميشو بيلير في محاضراته (ص 102) حيث اكد ان التعليم الصوفي كان باللغة البربرية مستدلا على ذلك بما ورد في كتاب المنهاج الواضح حيث اكد مؤلفه احمد ابن ابراهيم بن احمد ابن ابي محمد صالح انه سمع كرامات جده (بلسان الرطانة) فافرغها في قالب عربي وقد ترجم ميشو (لغة الرطانة) باللغة البربرية وهو في ذلك واهم لان لغة الرطانة معناها اللغة العامية التي تتكلم بها حتى المراكز الحضرية اليوم بالمغرب.



متحف الاوداية بالرباط

ولم يكد يبرز فجر القرن الرابع حتى صار البرابرة يزاحمون العرب في دراسة لغة الضاد بتونس والقيروان وتلمسان وفاس وقرطبة وتيهرت (عاصمة الرستميين) . واصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب في قواعد الاصول وتفاريع الفقه ومباديء علم الكلام باحثين معهم اصول العربية . وقد ذكر ابن بشكوال في صلته (ص 208) ان سعيد بن عثمان البربري المعروف بابن اقزاز كان لغويا له كتاب في الرد على صاعد البغدادي في مناكير كتابه في النوادر والغريب المسمى بالفصوص ثم ذكر ان من طريقة هذا البربري صحت اللغة العربية بالاندلس بعد ابي علي البغدادي .

على ان هنالك عاملا آخر كان له اثر في نشر العربية بين القبائل وهو دخول العرب الهلاليين والسلميين الى افريقيا وكانت اساليب العيش عند هؤلاء العرب البدو متجانسة مع الحياة البربرية في السهول والجبال مما سهل امتزاج العنصرين حيث تكون جنس خليط واستعرب البربر وتوغلت اللغة العربية حتى بين البدو والبرابرة بعد ان كانت قليلة الانتشار بينهم الى ذلك العهد ويعقوب المنصور هو الذي جلب القبائل الهلالية الى المغرب الاقصى بعد ان ظلت مدة غير يسيرة في المغربين الاوسط والادنى كما جلب السعديون عرب معقل للاستعانة بهم على توطيد دعائم دولتهم الفتية فلعب العرب المهاجرون دورا سياسيا (عرب معقل استولوا على شرق الريف في القرن السابع الهجري) علاوة على الدور الاجتماعي والجنسي ومنذ ذلك الحين واللغة العربية تفزو البلاد سهولها وجبالها بفضل انصهار العنصرين في بوتقة العروبة الخاصة حتى قال الفريد بيل في الكتاب الذي صنفه حول البربر وديانتهم (ص 204) ان رجال البربر اصبحوا اليوم كلهم يتقنون اللغة العربية في الجبال الاطلسية لا سيما منها الناحية الشرقية .

وهكذا حمل الاسلام الى هذه الديار لغة كانت اذ ذاك من ابرز لغات
المعارف والعلوم كما حمل اليها حضارة لولاها لتأخر عصر الانبياء
بعده قرون كما اعترف بذلك كل من م . ليبري وغوستاف لوبون

وقد اندثرت من المغرب بقايا الحضارة اللاتينية والوندالية التي ارادت
ان تركز نفسها بالحديد والنار بينما غزا السلام قلوب البربر بالحكمة
والموعظة وسمو الفايات .

وقديما رمز بيسمارك الالماني الى ما تبنيه القوة بقوله : « ان الحراب
يمكن ان تستعمل لكل شيء الا كبساط للجلوس » .

تعليق دار السلمي ومكتبة ابن خلدون

انها مستعدة لطبع ونشر جميع ما تنتجه قريحة الطائفة
المثقفة بالمغرب .

انموذج للذاتية العلمية الوطنية

كتب الاستاذ ماسينيون في كتابه المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر بحثا قيما عن الجغرافيين المغاربة وعن المحاولات التي قاموا بها لتحديد تخوم المغرب في دوائر الاطوال والعروض ولا يخفى ان جغرافية البلاد المغربية قد اهتم بها امثال علي المراكشي وابن العذاري وابن ابي زرع وابن خلدون والتجاني واليفراني والقيرواني والعبدري والادريسي وابن غازي وابن بطوطة ومؤرخون جغرافيون آخرون شاهدوا المغرب وطافوا في ربوعه كاليعقوبي وابن حوقل والبكري والفزاري وابن اياس وسمعوا عنه كالفرغاني وابن خرددبه والا صطخري والمسعودي والدمشقي وابي الفداء ولم تكن المعلومات الجغرافية تعدو في القرن الرابع الهجري مجموعة من البيانات عن طريق الحجيج وانساب القبائل فمعظم ما ورد في مسالك البكري لا يهم الا ناحية المغرب الشمالية الغربية ثم جاء الادريسي فاضاف معلومات جديدة تملس الخريطة المغربية اما المؤرخون الاقحاح فانهم لم يكونوا يعرجون على الناحية الجغرافية الا عند ما يصفون المدن التي مروا بها ومنهم من يحدوه التطلع وروح التنقيب الى التبسط في جغرافية ناحية بكاملها كما فعل ابن خلدون فيما يخص تامسنة ودرعة .

والخرائط العربية الاولى كانت عبارة عن خلاصة لما ورد عن بطليموس مثال ذلك الاصطخري الذي لم يحقق الحدود المغربية ولم يثبت من اسماء المدن والنواحي الا اثنين وهذا بخلاف الادريسي الذي زاد على اطوال بطليموس تحديد مواقع الميناء والانهار والجبال ثم سجل ابن سعيد الفرناطي سلسلة من الاطوال والعروض لمختلف المدن المغربية التي حدد مواقعها تحديدا يقارب تحديد الادريسي ولكن العمل الجليل الذي كلل كل تلك الجهود هو ذلك الذي قام به ابو الحسن علي المراكشي الذي قاس بنفسه اطوال

وعروض سبع عشرة مدينة مغربية وبذلك جاءت خريطته اقرب الى الحقيقة من خريطة الادريسي وهذا شيء معقول لان بتجمع الملاحظات التي تتوافر مع الزمان تتضح كثير من النقط الفامضة فاتضح خريطة المراكشي لا يقدر اذن في ضلالة الادريسي الذي وصفه كويتي في كتابه (عادات واعراف المسلمين) بانه استاذ اوربا في الجغرافية لان اوربا ظلت ازيد من ثلاثة قرون عالة على خريطته العالمية والادريسي اطول باعا من بطليموس نفسه واكثر دقة في ملاحظاته وتقديراته لان بطليموس احصيت عليه في تقديره للمسافة الفاصلة بين طنجة والاسكندرية اغلاط يقدر مجموعها بثمانى عشرة درجة طولية بينما التقديرات العربية لا تتجاوز الحقيقة فيما يخص المراحل الفاصلة بين طنجة وبرقة الا بما يقل عن الدرجة الواحدة والعرب هم الذين نبهوا على الاغلاط التي ارتكبها بطليموس في جغرافية البحر الابيض المتوسط .

وعند ما جاء الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي سجل نحو الاربعمائة اسم جغرافي تشمل مجموع نواحي المغرب وقد استقصى جغرافيون اوربيون نقلا عن الوزان الذي ظل كتابه نحوا من ثلاثة قرون المصدر الوحيد لجغرافية المغرب وقد علق الرحالة مارمول في القرن السادس عشر ميلادي على رحلة الوزان فحقق محتوياتها فيما يخص الجنوب وشوه حقائقها فيما يخص الريف والحوز (شرق فاس) .

ويقسم الوزان افريقيا الى اربعة اقسام :

- 1 - بلاد البربر بشمال الاطلس ،
- 2 - بلاد الجريد (اي التمر) بجنوب الاطلس ،
- 3 - بلاد ليبيا في الصحراء ،
- 4 - بلاد السودان او بلاد العبيد وهذا تقسيم جديد لان الجغرافيين العرب السالفين كانوا يقسمون العالم الى اقاليم سبعة يجعلون معظم المغرب في ثالثها .

وتمتاز ملاحظات ابن الوزان بكثير من الدقة فقد قدر مسافة ما بين طنجة وفاس بمائة وخمسين ميلا اي بنحو المائتين واربعين كيلو مترا اذا قدرنا الميل بالف وستمائة متر (هذا هو معدل قيمة الميل العربي اما الميل الروماني فانه يقدر بـ 1471 مترا) .

وقد ذكر ان الاطلس والريف كان فيهما في عصره غابات هائلة بخلاف السهول كما حدد مواقع بعض المناجم كالآثمد في بني بصري والفضة في السوس والنحاس في تادلة والحديد في جبل الحديد وقد افاض ايضا في ذكر النباتات والفواكه المفربية وحدد مواقع نضجها ولاحظ فيما يخص قصب السكر ان السعديين وسعوا نطاق انتاجه ليزاحموا بذلك السكر الاندلسي الذي حاول مهاجرون غرناطيون ان يزرعوا قصبه في احواز فاس كما لاحظ ان القطن كان يزرع بسلا (وقد سبق للدريسي ان ذكر ان حقول القطن توجد ببلاد تادلة) وكانت سبتة تصدر النحاس الى ايطاليا .

وبذلك ندرك ان خريطة المغرب الجغرافية قد سجلت على يد جغرافيين مغاربة بصورة لا تتجاوز الواقع الا بهفوات ضئيلة لعدم دقة الالات التي كانت تستخدم اذ ذاك .

العملة المغربية

علم النميات هو علم تعرف به انواع النقود التي ضربت في ازمئة مختلفة وبلاد شتى وفي ايام ملوك وقياصرة متنوعين والنيات جمع نمي وهي كما في القاموس صنجة الميزان او الفلوس والدرهم التي فيها رصاص او نحاس والواحدة بهاء والجمع نامي وهذه الكلمة متقاربة مع لفظة لها نفس المدلول في اللغتين اليونانية واللاتينية ومنهما اخذ الفرنسيون كلمة :

ولم يكتب في هذا الموضوع من علماء الاسلام ومؤرخيه الا افراد قلائل منهم البلاذري في آخر مصنفه (فتوح البلدان) والمقريري صاحب الخطط في (رسالة في النقود الاسلامية) عني بنشرها الشدياق ثم اعيد نشرها عام 1933 (وهي تتم ما كتبه البلاذري) وهناك كتاب ثالث هو الجزء العشرون من (وهي الخطط التوفيقية الجديدة) لعللي باشا مبارك افردته للنقود العربية فتم بذلك موضوع تلك النقود من صدر الاسلام الى عام 1282 (الموافق عام 1865) والكتاب الرابع موسوم (بتحرير الدرهم والمقال والرطل والمكيال) تأليف مصطفى الذهبي الشافعي وهناك ايضا اقوال متفرقة في كتب مؤرخين آخرين كابن خلدون والقلقشندي .

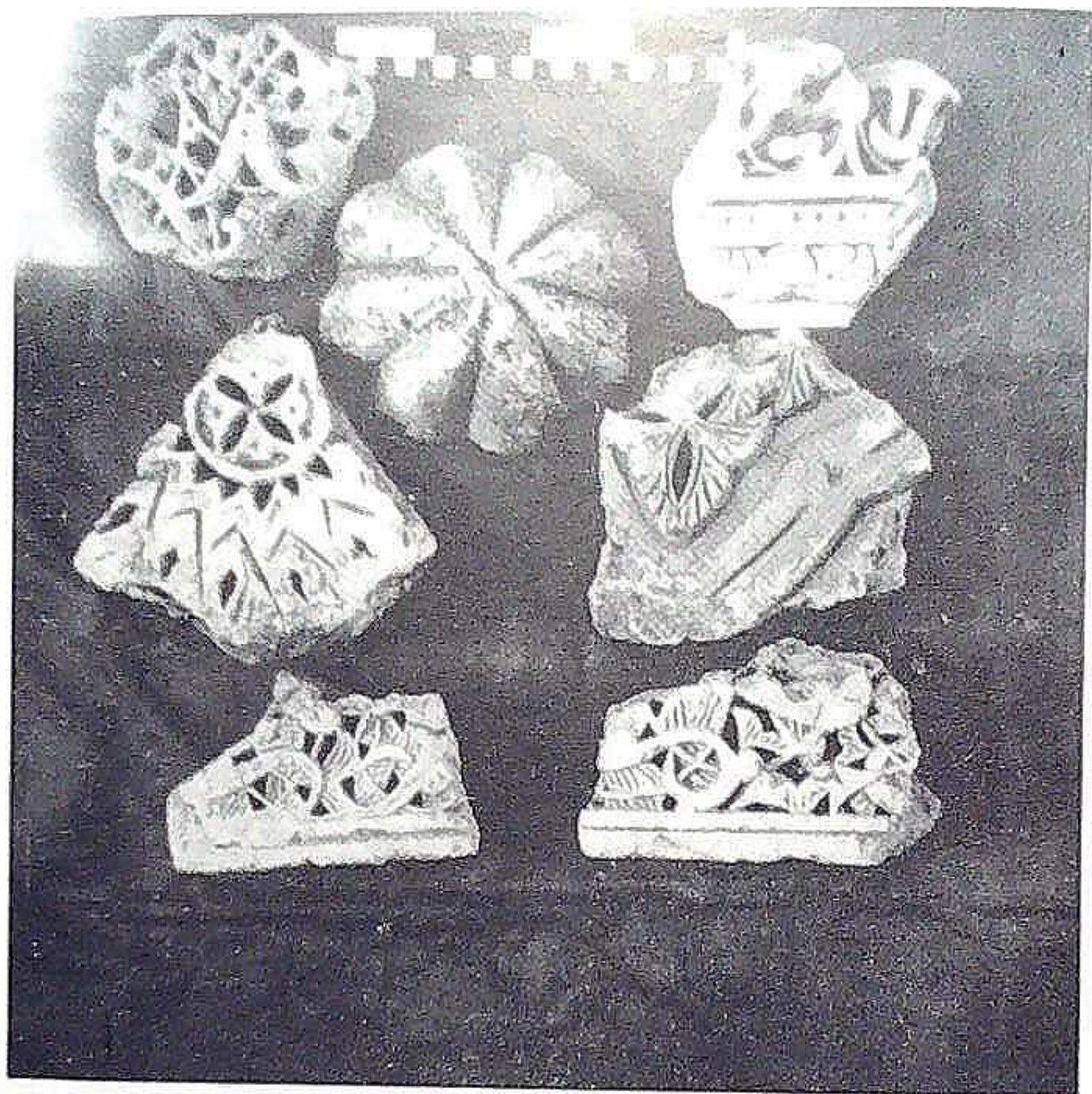
اما في اللغات الاجنبية فاهم ما كتب في هذا الباب رسالة النقود لم . دوساسي (De Sacy)

وقبل ان نرسم لوحة عن تاريخ النقود المغربية نرى من الواجب التمهيد لها بلمحة في تاريخ النقود العربية وكذلك الاجنبية فنقول :

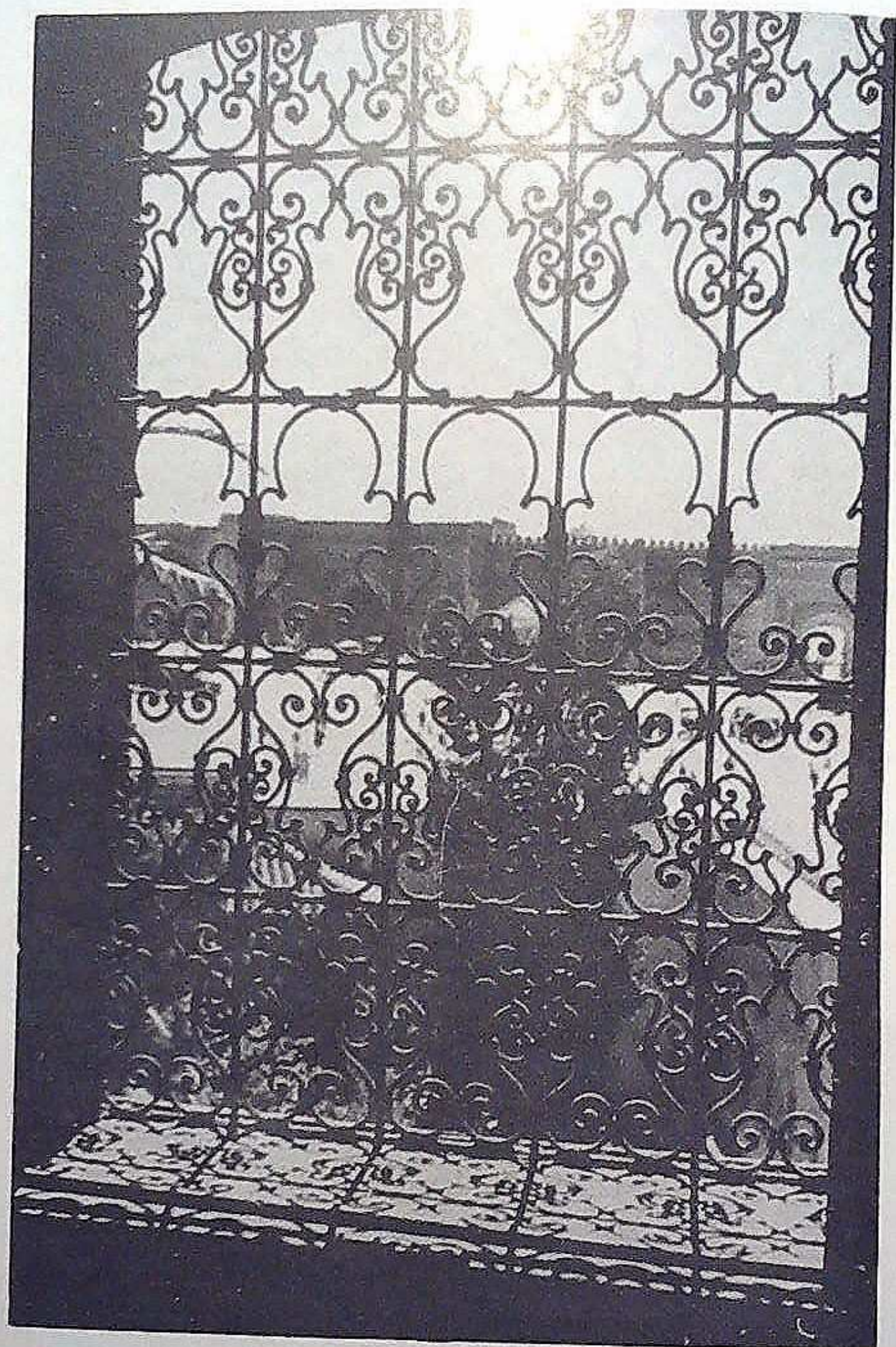
كان الناس يتعاملون اول الامر بالمقايضة قبل ان يعرفوا النقود ويقال بان اول امة تعاملت بالنقود هي الامة اللوذية في متم القرن السابع قبل الميلاد وقد ذكر انستاس الكرملي في كتابه النقود العربية ان بلاد فارس تعلمت ضرب

النقود من لوزية على اثر تغلبها عليها عام 546 قبل الميلاد وكانت النقود في اول امرها تضرب مربعة ثم جعلوها مستديرة وقد علم اللوذيون العالم النقود المقطوعة بحجم معين ووزن معين وطبعها بطابع الملك كفالة لقيمتها وهكذا شاع استعمال النقود المطبوعة في جزر المتوسط ويونان واوربا وعند ما نمت ثروة اثينة واتسع اطار تجارتها كانت نقودها تحتل مركزا مهما في الاسواق لا سيما في حوض المتوسط ولم يستعمل الرومان النقود الا حوالي عام 350 قبل الميلاد حيث ضربوا نقودا فضية على غرار الدراخمة اي الدرهم اليوناني وصفروها الى سدس حجمها الاصلي بعد استيلائهم على جنوب اليونان عام 268 قبل الميلاد على ان القرطاجنيين وهم من الجنس العربي لرجوع عنصرهم الى الكنعانيين سكان فينيقيا (اي ساحل لبنان) هم اسبق الامم الى استنباط النقود الجلدية التي كانوا يستعملونها استعمالنا اليوم للاوراق المالية على ان اول امة استعملت الاوراق البنكية في شبه شكلها الحالي هي امة الصين كما اورد ذلك ابن بطوطة في رحلته حيث اشار الى وجود (اوراق) بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان واذا تمزقت حملها الى دار السكة لياخذ عوضها) .

وكان الانباط في جنوب شرقي الاردن قد اقتبسوا من اليونان ضرب النقود واول من فعل ذلك منهم الحارث الثالث وكانت للدولة التدمرية نقود في احد وجهيها صورة وفي الوجه الاخر احرف اما العرب قبل الاسلام فانهم كانوا يتعاملون بنقود كسرى اي الدراهم والدنانير وكان الدرهم فضيا والدينار ذهبيا على الاغلب ووزنه مئقال وكان الى جانب هذين النقيدين نقود نحاسية وروى عن الزمخشري ان الدينار قطعة من فضة وهو خلاف المشهور كما يدل على ذلك قول الشاعر الذي شبه الدينار بالشمس والدرهم بالقمر :
ويظلم وجه الارض في اعين الوري * بلا شمس دينار ولا بدر درهم



متحف قصر البديع بمراكش



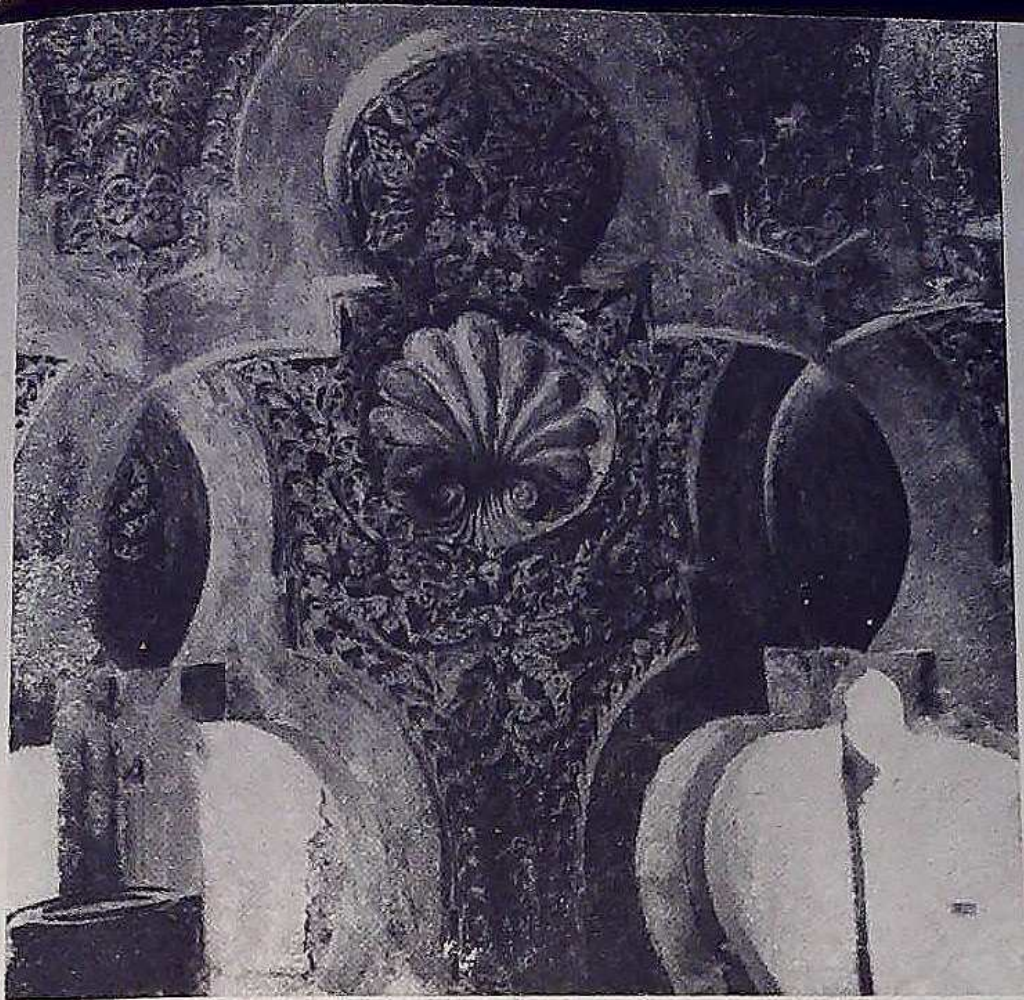
شباك حديدي من صنع مغربي

ويرى المقرئ ان النقود النحاسية لم تكن معروفة في القديم وهو خطأ لوجودها عند الرومان واليونان .

وكانت قيمة الدينار تختلف من 10 دراهم الى 13 او 15 درهما حسب خلوصها او زيفها ويقدر الدينار اليوم بنصف ليرة فرنسية ذهباً او نحو العشرة فرنكات ذهبية وجاء في الخطط التوفيقية لعلي مبارك باشا (ج 4 ص 46) ان قيمة الدينار هي خمسة عشر فرنكاً ذهبياً .

وكانت الدراهم الفارسية ثلاثة انواع منها البغلية اما الدنانير فقد عرف العرب منها صنفين الهرقلي او الرومي والكسروي اي الفارسي وقد ظل العرب بعد الاسلام يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية فلما ضربوا نقودهم ابقوها على شكلها الرومي والفارسي بكتابتها ونقوشها حتى ان سيدنا خالد ابن الوليد يوم ضرب باسمه نقوداً في طبرستان عام 15 او 16 هـ جعلها على رسم الدنانير الرومية ويقول المؤرخ الالماني ميلر بان خالداً ابقى على احد وجهي هذه الدنانير صورة الصليب والتاج والصولجان ونقش على الوجه الاخر اسمه اليوناني وقد لاحظ الاستاذ انستاس الكرمللي ان هذا يناقض ما قاله المقرئ من ان سيدنا عمر بن الخطاب هو اول من ضرب النقود في الاسلام ويريد الاستاذ الكرمللي ان يستنتج من رواية ملر ان ضرب النقود باسمه كان من اهم الاسباب التي دعت عمر بن الخطاب الى تنحيته عن قيادة الجيش وان عزله كان بعد فتح الشام والقدس لا في واقعة اليرموك والذي حمل الاستاذ على هذا الاستنتاج كون خالد لم يكثرث للعزل بل ظل على ولائه لعمر وحارب في جملة الجند وهذا استصغار لايمان خالد الذي كان يرى ان طاعة الخليفة ولو مخطئاً هي طاعة للرسول .

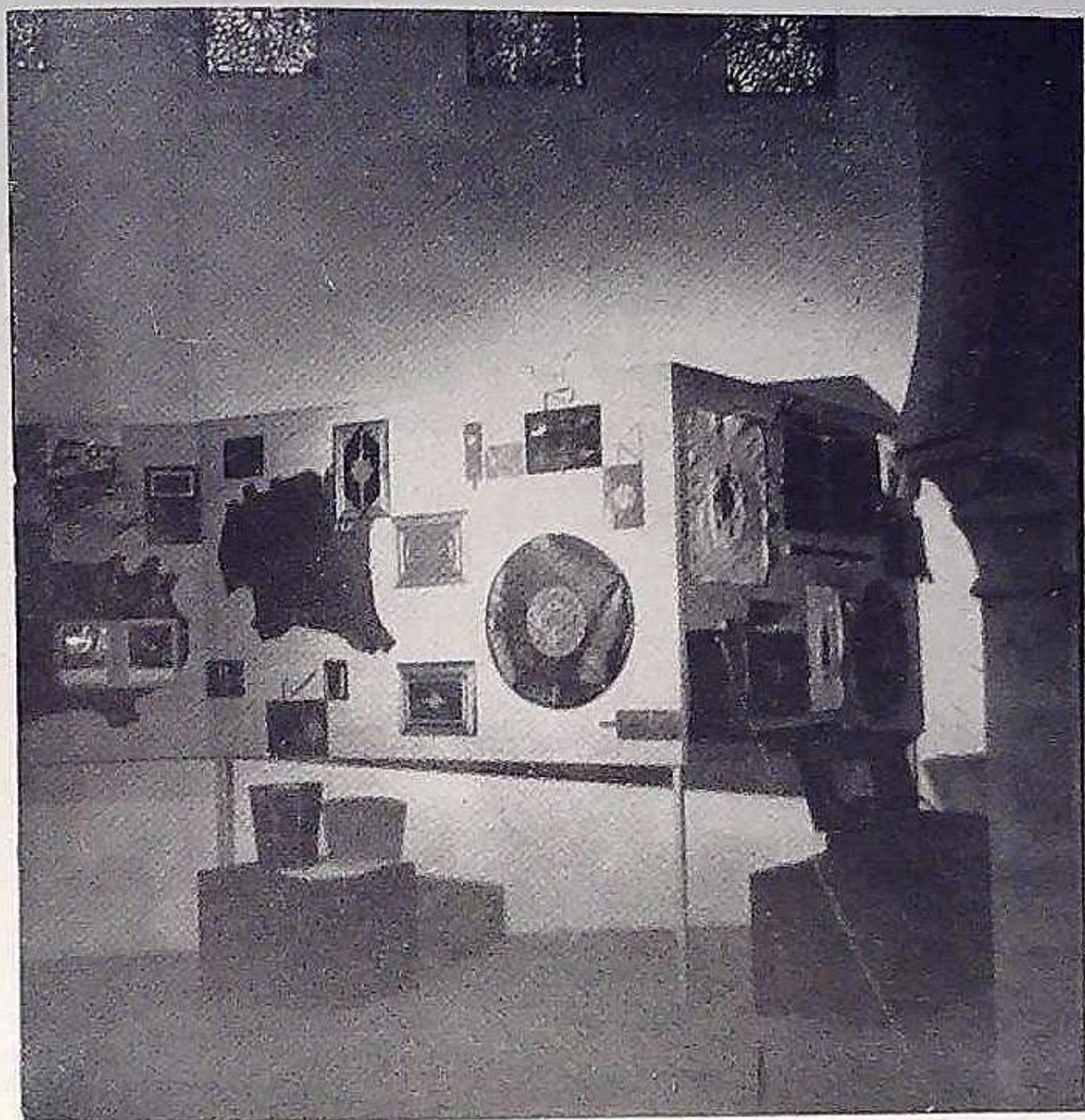
اما عبد الله بن الزبير فهو اول من ضرب النقود مستديرة في مكة وضرب الامراء والولاة في عهد الخلفاء نقوداً في طبرستان عام 28 هـ ولكن اول من ضرب النقود الرسمية عربية مستقلة في الاسلام واوجب التعامل بها كما يقول



مظهر للفن المرابطي الجامع بين الفخامة والرقّة
(قبة ازاء جامع ابن يوسف بمراكش وكانت تغطي مجموعة
مراحيض يتوسطها صهريج للوضوء)



نماذج من الخزف المغربي



نماذج جلدية مطعمة بالذهب

الاستاذ الكرملى وابطل استعمال النقود الرومانية والفارسية هو عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بني امية باشارة سيدي محمد الباقر بن علي بن الحسين ولكن ابن الاثير ينسب فضل هذا الراي لخالد بن يزيد بن معاوية وقد عرفت دنانير عبد الملك بالدنانير الدمشقية وامر عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بضرب الدراهم ثم صار امراء العراق يضربون النقود لبني امية وفي معلمة الاسلام ان الحجاج اتخذ دارا للضرب وجمع فيها الطباعين فكان يضرب المال ... ثم اذن للتجار وغيرهم ان تضرب لهم الاوراق واستغلها من فضول ما كان يوخذ من فضول الاجرة للصناع والطباعين .

وحينما غلب هارون الرشيد نقفور ملك الروم البيزانطيين فرض عليه غرامة مالية ينقش على احد وجهي نقودها (هارون الرشيد) وعلى الاخر (الامين والمأمون) وقد استعمل العباسيون الحجارة الكريمة كما تستعمل الحوالات المالية اليوم .

وكان الدرهم البغلي يساوي ثمانية دوانق والمغربي ثلاثة فامر سيدنا عمر بن الخطاب بالنظر الى الاغلب في التعامل فحددت قيمة وسطى وهي ستة دوانق .

والبغلية نسبة الى بغل وهو اسم يهودي ضرب تلك الدراهم كما اورد ذلك صاحب البرهان القاطع وصاحب مجمع البحرين .

والدرهم في اليونانية دراخمي كما ان الدينار كلمة رومية هي :

والقيراط معرب كذلك عن اليونانية وكان وزنه يختلف بحسب البلاد فبمكة ربع سدس دينار (اي 1/24) وبالعراق نصف عشرة (اي 1/20) كما في القاموس ومن اغرب ما ورد في مجلة هسبريس (ج 23 سنة 1936) ان صلاح الدين الايوبي ضرب عددا من النقود الذهبية والفضية ليسحب من الرواج العملة الزجاجية التي كان الخلفاء الفاطميون قد اضطروا الى استعمالها

ويجد الباحث نتفا مبعثرة من تاريخ النقود المغربية في جملة المصنفات التاريخية والرحلات والتراجم الا ان هنالك كتباً افاضت في هذا الباب كرحلة الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي واذا اضفنا الى ذلك ما اورده ابن بطوطة في رحلته (ج 4 ص 336) والمقريري وابن فضل الله والزياني ثم ما جاء في مصادر اخرى ككتاب النميات والنقود الاسلامية للاستاذ سوفيـر Sauvair (1882-87) والعملـة الاسلاميـة لم . ساسي (1797) وشينيـي وبو نفيل في دائرة المعارف النقدية (ص 175) وكذلك النماذج المحفوظة في المتاحف ودور الاثار يمكننا ان نرسم صورة عن النقود المغربية وتطورها وشكليتها وقيمتها خلال العصور وقد ذكر الاستاذ ماسينيون في التعليق الذي حرره حول رحلة ليون الافريقي بعنوان (المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر) (ص 100) لائحة لدور السكة في المغرب ايام الحسن الوزان اي اواخر القرن العاشر مشيراً الى وجودها بفاس (لسك الذهب والفضة) ومراكش (كذلك) وتزنيت (الفضة) وتبوت بسوس (الحديد) وهسكورة (الذهب) وازمور (الذهب) والفضة وسلا (الذهب والفضة كذلك) ونون وسبته (ما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين) وسجلماسة (الذهب والفضة ما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين) .

غير ان العملة لم تكن اذ ذاك منتشرة في كل مكان لان المقايضة كان لا يزال العمل جارياً بها وقد ذكر الحسن بن محمد الوزان ان الفضة لم تكن تستعمل في عصره بسوس ومصمودة وهسكورة وتادلا والحوز الا حلياً للنساء لا للتعامل .

وكان هنالك نوعان من النقود نقود حقيقية مسكوكة كالدينار الذهبي والدرهم الفضي والفلس المصنوع من معدن البليون ونقود معظمها غير موجود وانما تتخذ اساساً ومقياساً لغيرها من النقود الموجودة مثال ذلك

المثقال العربي الذي كان يساوي في القرن الثاني ما بين 10 و 15 اوقية وما بين 40 و 60 موزونة ورغم ازمة الوفرة او القلة التي طرات على التتابع بخصوص الذهب والفضة بعد القرون الوسطى فان قيمة الفضة الشرعية ظلت على ما كانت عليه في الصدر الاول اي سبع قيمة الذهب في حين ان المعدنين كادت قيمتهما تتعادل بل تجاوزت قيمة الفضة قيمة الذهب على اثر اكتشاف معادن الابريز ونضوب معين معادن الفضة القديمة وقد ضرب المغرب في المدة المتراوحة بين القرن الخامس والقرن العاشر الهجري قطعاً من الدينار واخرى تساوي نصف دينار وسدسه وربعه وثمانه ونصف سدسه كما سك قطعاً من الدراهم ثم قطعاً اخرى تعادل قيمتها نصف درهم وثلاثة وربعه وسدسه ونصف .

وكان البليون يساوي 6 فلوس والاوقية ريالاً اسبانياً - ولنستعرض الان اوزان الدينار والدراهم والفلوس من صدر الاسلام الى ايام السلطان مولاي الحسن :

فقد عثر في قصر فرعون (مدينة ويلي) على نقود ضربت ايام الادارة وقبلهم وهي :

دراهم سكت في واسط (مقر الحجاج بين البصرة والكوفة) عام 95 هجرية ودراهم ضربت في مدينة السلام عام 157 هـ واخرى على نوعين ضربت عام 171 هـ ودراهم سكت باسم خلف بن الماضي عام 175 هـ واخرى في ويلي نفسها باسم المولى ادريس الثاني عام 181 هـ واخرى باسم المولى ادريس عام 183 هـ واخرى باسم قيس بن يوسف عام نيف ومائة وثمانين هجرية نقش عليها (لا اله الا الله وحده لا شريك له) (راجع مجلة هسبريس الجزء 23 عام 1936) .

والدينار كان وزنه يتراوح في الصدر الاول بين 4 غرامات و 729 و 4 غرامات و 25 و ايام المرابطين نقص وزنه حتى صار يتراوح بين 3,960 ثم

ارتفع وزنه ايام الموحدين الذين حاولوا الرجوع الى السلفية وتقليد الاوائل حتى في وزن النقود الى 4,729 غراما كما كان ايام سيدنا عمر بن الخطاب وظل الدينار الموحدى المصمودى مربعا طوال قرن كامل ثم تغير شكله الى التدوير ايام المرينيين دون ان ينقص من وزنه ولكن في ايام الدولة السعدية انخفض وزنه الى 3,548 غرامات ثم ازداد انخفاض وزنه ايام الدولة العلوية حتى بلغ ثلاث غرامات ومن ذلك الحين اي مند عهد المولى اسماعيل ابطال التعامل بالدينار الذهبى اللهم الا ذلك النوع الصغير التابع الذي ضرب بالرباط عام 1787 والذي كانت قيمته تعادل 40 موزونة وهكذا انتهى عهد المغرب بالمناقل الذهبية التي استعوض عنها بمناقل قياسية مسن فضة فكان الدينار الفضى يزن 28 غراما ما بين سنتي 1760 و 1787 ويساوي ريالا عام 1849 ويزن 26 غراما عام 1899 وصار وزن المئقال القياسي يتناقص حتى بلغ 1,78 غراما ما بين سنتي 1903 و 1905 ميلادية .

وكان الدينار يساوي :

- 1 - فى الصدر الاول عشرة دراهم وستمائة فلس
 - 2 - وايام المرابطين والموحدين مئقالا وعشرة دراهم
 - 3 - وايام المرينيين والسعديين والعلويين 15 درهما
- ثم صار الريال يساوي عام 1849 13 درهما ونصف درهم و 1,296 فلسا وفى عام 1899 صار الريال يعادل عشرين قرشا و 3,120 من الفلوس وفى عام 1788 ضربت فى اسبانيا سلسلة من النقود المغربية وكانت هنالك نقود تسمى بالزلاغي تتجزا الى نصف فلس وثلاثة وربعه وخمسه .

وكان الدوبل (وهو تكبير دبلون عند الاسبان) يستعمل فى فاس وهسكورة وتونس وتساوي قيمته عند كل من المرينيين والحفصيين وبني الاحمر فى غرناطة ما يعادل 13,50 فرنكا .

اما العملة التي كانت اساس التعامل بالمغرب في العهد الحسنى فما بعد فقد وصفها الدكتور فسجيربر في كتابة (الدار البيضاء والشاوية عام 1900) حيث ذكر ان اساس نظام العملة كان هو المثلث المستعمل مثلا في المعاملات العقارية والبيع بالمزايدة والذي كانت قيمته تعادل 30 سنتيما فرنسيا بالصرف الوقتي اذ ذاك وكان المثلث يصرف هكذا :

المثلث = 10 اوقيات

الاوقية = 4 موزونات

الموزونة = 6 فلوس

الفلس = 6 قواريط

غير ان هذه النقود كانت مجرد عملة تقديرية للحساب اما العملة الرائجة فهي :

النقود الذهبية : اللويز : 20 فرنكا فرنسا

النقود الفضية :

الريال = الدورو (الاسباني) = 4 فرنكات

نصف ريال = 2 بسيطات = 2 فرنكات (او فرنك او 60 قس)

ربع ريال = فرنك واحد

1/10 ريال = 50 س اسباني = 40 س فرنسي

1/20 ريال = 25 س اسباني = 20 س فرنسي

عملة النحاس :

نقود اسبانية تساوي 10 او 5 س

موزونة واحدة تساوي اقل من سنتم

فلس يساوي عشر موزونة

تاريخ النظام الجبائي

يذكر المؤرخون ان العرب عند ما فتحوا المغرب فرضوا على من لم يدخل الى الاسلام كلا من الجزية والخراج وكانت الجزية عبارة عن مقابل لما يؤديه المسلمون للدولة من الزكوات اما الخراج فانه كناية عن ثمن الارض التي تتنازل الدولة عنها للفلاح بعد ما تملكها بحق الفتح .

ولكن بعد ما اعتنق البرابرة الاسلام لم يعودوا يؤدون الا الاعشار والزكوات .

وكانت الدولة الى جانب ذلك تتقاضى الخمس من استغلال المعادن التي توجد مناجمها في ارض مملكة للرعايا وتعتبرها كركاز فتطبق عليها الحديث الشريف (في الركاز الخمس) وفي اوائل المائة الثانية انتشر في المغرب مذهب الخوارج الذين كانوا يبثون آراء الشعوبية فحدثت قلاقل وعمت الفوضى فصار العمال المحليون يشغلون كاهل الحواضر بضرائب مختلفة يفرضونها على المواد الضرورية وقد اشار الشريف الادريسي الى جبايات من هذا النوع كانت تطبق في اغمات .

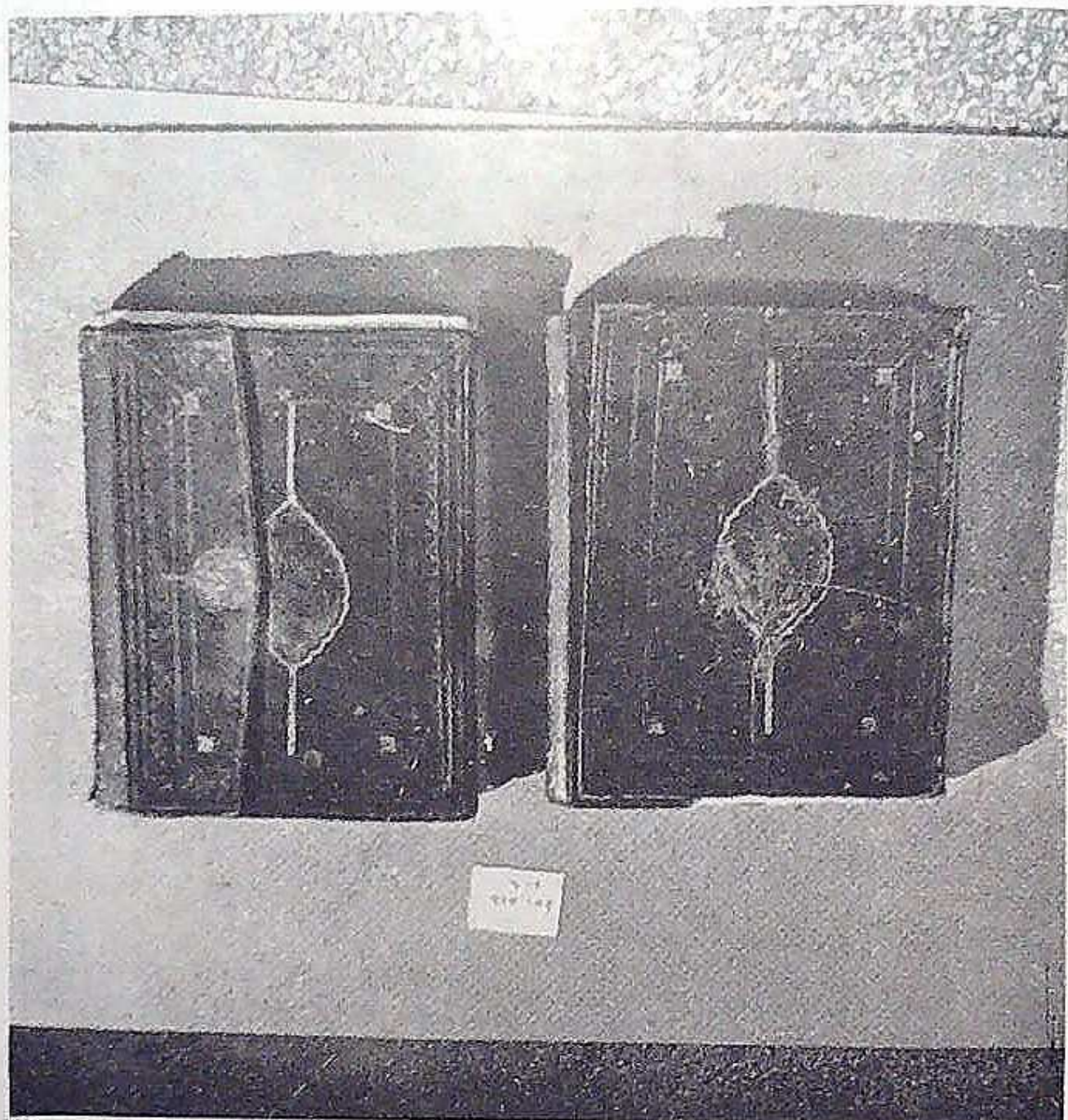
ولكن لم يكد المرابطون يقبضون على زمام الحكم حتى الفوا جميع هذه الضرائب واقتصروا على الاعشار والزكوات فكانت ميزانيتهم تتوازن بهذه الموارد مضافة الى الجزية المفروضة على اليهود والمسيحيين والخمس المستخلص من غنائم الجهاد في بلاد الاندلس .

وعند ما استولى عبد المومن على العرش واحتل افريقيا الشمالية بكاملها مسح الارض بالفراسخ والاميال ثم اسقط من التكسير الثلث في الجبال والفياض والانهار والطرق وفرض على الباقي الخراج والزم كل قبيلة بقسطها من الزرع بدعوى ان البلاد فتحت عنوة ثم فرض على الشعب علاوة على

الزكوات والاعشار زكاة الفطر ومكوسا على المبيعات وزاد ماسينيون وضريبة
المباني وواجبات الابواب كما زاد دوزي الرتبة التي كانت تتقاضاها من الناس
المراكز المسلحة في مقابل تامين الطرق وفي ايام يوسف بن يعقوب المريني
وابي سعيد عثمان بن يعقوب وضع نظام جبائي جديد اقتصر فيه على الزكوات
والاعشار الدينية فيما يخص الرعايا المسلمين والجزية فيما يخص الذميين
وورد في الوثائق المغربية ان الجزية كانت فردية (ديناران وثمان دينار
للفرد) ولكن صارت جماعية في القرن العاشر حيث ذكر الحسن بن محمد الوزان
ان يهود فاس كانوا يؤدون للدولة اربعمائة دوكا في الشهر والدوكا تساوي
بصرف القرن الماضي نحو السبعة فرنكات ونيّف .

وكانت هنالك فيما رواه ماسينيون في كتابه المغرب في اوائل القرن
السادس عشر (ص 179) ضرائب اخرى في شكل ذعائر وجبايات على
الفنادق واخرى على المساجين (دوكا وربيع) علاوة على الهدايا التي تقدمها
الرعية للسلطان وكان اهل البادية يؤدون زيادة على ذلك الخراج موزعا على
ما يسمى (بالزويجة) وهي عبارة عن مساحة من الارض يمكن لزوج من
البقر ان يفلحها في مدة يوم واحد وبعبارة اخرى نحو الثمانية هكتارات
وكانت الى جانب ذلك النائية التي كانت تدفع للمخزن حسب (الكانون) او
على عدد رؤوس افراد العائلة .

وكانت المدن تؤدي ضرائب غير مباشرة تعرف بالمستفاد كما نص على
ذلك الحسن بن محمد الوزان ولكن ابا سعيد المريني استعاض عن جميعها
بالمكس والقبالة ففيما يخص الاولى كانت تبلغ بفاس مثلا 2 في المائة وتؤخذ عن
كل شيء عدا الابقار والدجاج والخشب (الجمال والفنم تعفى كذلك في بعض
الاحيان) وكانت النسبة تصل احيانا الى 25 في المائة وكان المخزن يتقاضى
عن كل مقطوعة من الثوب المستورد من اوربا والمبيع في القيسارية قدرا معلوما
من المال .



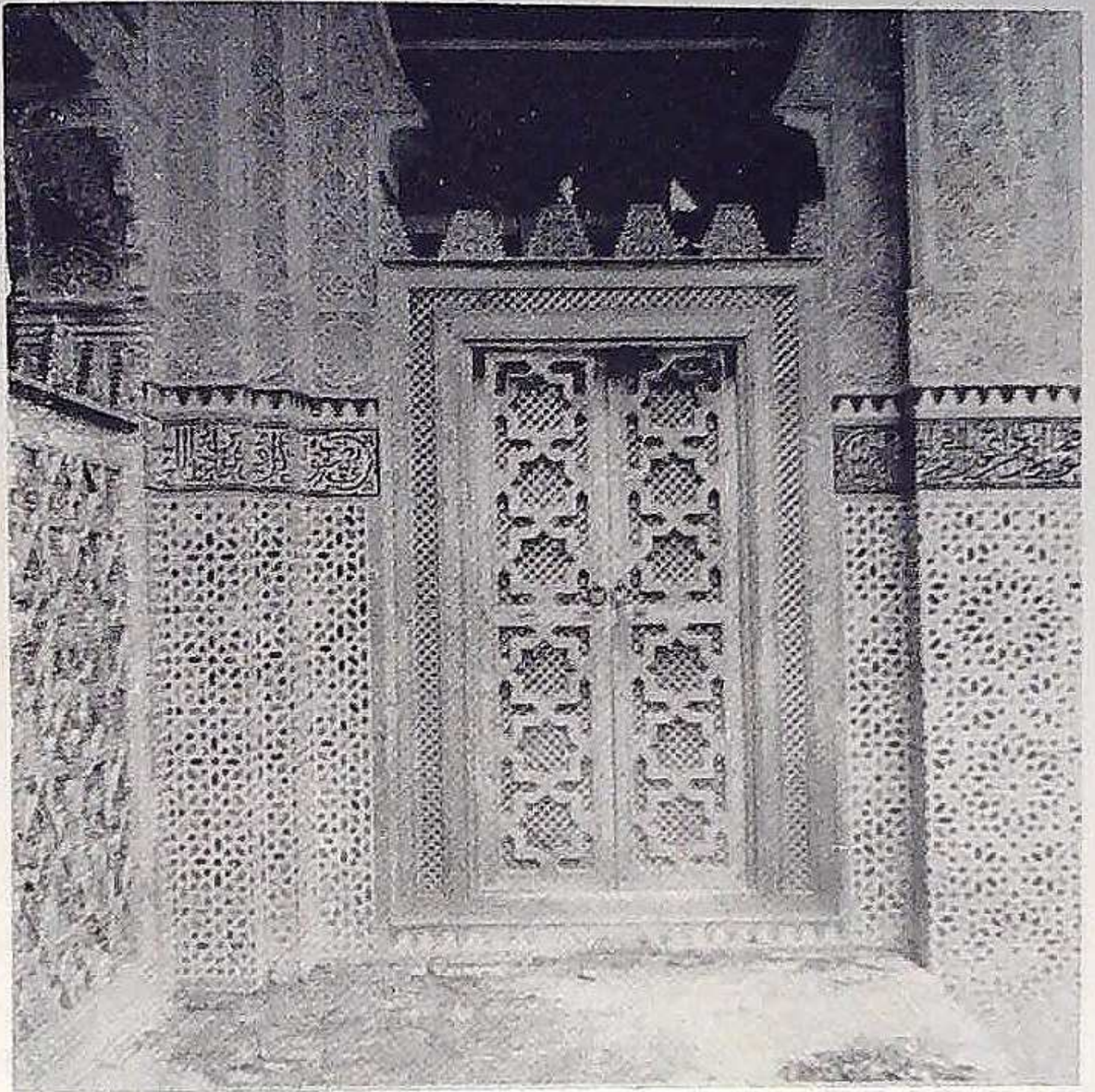
مخطوطات أثرية

وكانت هنالك ضرائب اخرى كالضريبة المفروضة على بائعي اللحوم المشوية في الشارع او على الخضر وكالتي كانت تؤدي عن المكايل في اسواق الجبوب وهي اشبه بالضريبة التي تؤدي اليوم في رحبة الزرع .

ولكن هذه الانظمة الجبائية تغيرت منذ القرن العاشر الهجري حيث نظمت جباية النائية في شكل جديد حلله الاستاذ كور وقد تم ذلك عام 1552 م حسب رواية ما سينيون اي ايام محمد المهدي السعدي وفي 1580 اي ايام المنصور اعيد نظام الخراج ثم تطورت الواجبات الجمركية فاصبحت تؤدي عن السكر والفضة والذهب واستدر بيت المال اموالا طائلة من احتكار بيع الكبريت والفولاذ والتبغ الى ان استعفى عن الاعشار الدينية عام 1901 بضريبة الترتيب .

وقد رسم الحسن بن محمد الوزان لوحة مهمة عن مداخيل الواجبات الجمركية (والنكاس) يتبين منها ان جميع نواحي المغرب كانت خاضعة للنظام الجبائي المخزني فقد بلغ المدخول السنوي في احد الأعوام 300 000 - دوكة اي ما يعادل 4 350 000 فرنك بتقويم القرن العاشر او ستة وعشرين مليون فرنك حسب قيمة اول القرن الحالي والذي يؤكد لنا الارقام التي ادلى بها ليون الافريقي ويدلنا على ان المداخيل الجبائية بالمغرب لم تتغير تقريبا خلال ثلاثة القرون التالية ما اورده الاستاذ هوسط عن السنوات المتراوحة بين 1760 و 1768 حيث ذكر ان واجبات الجزية على الادميين بلغت مائة الف مارك والجمارك 320 000 بياستر والاعشار والزكوات 270 000 بياستر والنكس (من قبالات وذعائر واحتكارات) 857 000 والهدايا 250 000 فيكون المجموع 865 000 مارك و 932 000 بياستر .

وكانت قيمة البياستر الاسبانية تعادل خمسة فرنكات و 43 سنتيما والمارك قيمته قيمة الفرنك بحيث يقدر المجموع بستة ملايين مارك وبما ان المارك في ذلك العصر كان يساوي 15/1 دوكا مغربية ذهبية حسب



الفن المريني الممزوج بألوان الفسيفساء وهي من خصائصه
(من ابواب المدرسة البوعنانية بفاس)

هوسط فان ستة الملايين المذكورة تعادل 400000 دوكا اى ما يقارب الرقم الذي ادلى به الحسن الوزان . وقد ورد من جهة اخرى فى مذكرات القنصل الفرنسي شينيى عن سنة 1767 بالضبط ان البواخر الفرنسية وحدها صدرت فى المغرب بضائع قيمتها 647000 ليبرة وجلبت اليه نحو نصف هذه القيمة وفى عام 1773 بلغت قيمة الواردات 400000 والصادرات 760 000 ومعلوم من جهة اخرى ان معاهدة 28 مايو 1767 تحدد التعريفة الجمركية بعشر قيمة البضاعة الواردة وقد نص عقد الجزيرة فيما بعد على ذلك على ان التعاريف الجمركية المفروضة على الصادرات تتجاوز العشر اذ انها تتغير تبعا لنوع البضاعة وحاجيات الدولة ويكفى ان تعلم ان المدخول الجمركي بلغ عام 1767 241 000 ليبرة اديت عن بضائع لا تتجاوز قيمتها 647000 ليبرة .

وقد تضخمت الموارد الجمركية تضخما مطردا اصبحت معه تسد مسدا مهما فى موارد الدولة التي قلت حاجتها الى ضرائب اخرى ويكفى ان 223 باخرة اجنبية دخلت عام 1851 الى المراسي المغربية مثقلة بالقطنيات والحرائر والفولاذ والحديد والسكر والشاي والقهوة والمواد المصنوعة وفى الصويرة وحدها بلغت قيمة البضائع 5583158 فرنكا على ان احتكار الدولة المغربية لحقوق الاصدار والايراد كان يدر عليها مبالغ اخرى ومن جملة المواد التي كان المخزن يحتكر اصدارها او توريدها لفائدة بيت المال ايام المولى عبد الرحمن قشرة الخفاف وجلود الحيوان والكبريت والاصباغ والقهوة والسكر والشاي والخشب والنحاس والزنك والرصاص وملح البارود والكيف ومناطق الصوف وكان هنالك نوع من الاحتكار يمكن ان يسمى احتكار الاحتكار وصورته ان الدولة اذا احتاجت الى المال وارادت ان تتورع عن فرض ضرائب جديدة غير الاعشار الدينية عمدت الى حقها فى احتكار جلب او تصدير بضاعة من البضاعات فتنازلت عنه الى تاجر او طائفة من التجار فى مقابل عوض مالي مهم وقد

ورد في عدة مصادر ان الموارد الجمركية المغربية بلغت سنويا ايام المولى
الحسن نحو المشرة ملايين فرنك .

تلك صورة عن نظام المغرب الجبائي في مختلف العصور عن الاساليب التي
عمد ملوك المغرب الى استخدامها في عهد السعديين والعلويين في استغلال
الميزان التجاري الدولي لتضخيم الموارد الجمركية والاستغناء بها عن ائقال
كاهل الشعب بمختلف الجبايات .

لطبوع جميع انواع المطبوعات

تخابروا مع دار السلمي للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع
زنقة الجزولي رقم 38 درب البلدية صندوق البريد رقم 4010
الدار البيضاء تليفون 22-316

روح المقاومة في الادب المغربي

الوطنية عاطفة تغفلت في احشاء الناس وفضيلة تركزت في طباعهم وما من انسان في شرق المعمور او غربه الا ويحس نحو مرتع الصبا ومسقط الالباء والاجداد بشعور خاص يقوى ويضعف ولكنه شعور موجود لم يعوز احدا من افراد البشر .

ولن نثير في هذا الحديث الادبي جدالا حول ماهية هذه العاطفة كما اننا لن نثير ذلك النقاش الفلسفي الذي استمر امدا طويلا بين انصار الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة في العصر الحديث اذ كل يعلم ان الاسلام هو اول من ضرب للبشرية مثالا كاملا عن الوطنية الحق في اجلى مظاهرها الانسانية والتراكية معا ولكن حديثنا لن يدور الا حول الوطنية في الادب وبالاخص في الادب المغربي ونحن لا نقصد بالوطنية هنا الا تلك العاطفة الساذجة التي تهز كيان الانسان وتذكى جوانحه وتفيض منه نبع الشعور فيطفح القلب باحاساسات رقيقة تتردد نغماتها على اللسان بعد ان يضيق عن ايوائها الجنان وكم فاض نبع العاطفة الوطنية في الشعوب فاوقد في ادبائها وشعرائها بوتقة الالهام فتبلور الشعور نثرا وقريضا وملحونا .

ولكل شعب في تراثه الادبي جانب يزخر بهذا النوع من الانتاج العاطفي الخالص ففي الادب الفرنسي اساطير وطنية كاسطورة رولان وفي الادب العربي نفحات قدسية من هذا الانتاج السامي لا تكاد تحصى تفرقت جداولها من عصر الجاهلية الى العصر الحاضر وفي الادب المغربي والاندلسي شيء كثير .

والشعور الوطني شعور مستديم الفيض ولكنه لا ينبثق ذكيا مدرارا الا عند الازمات .

وقد بدا هذا الشعور يتبلور في الانتاج الادبي بالمغرب او اخر القرن الثامن الهجري عند ما طفى سيل النصرانية على الاندلس فنفي الاسبان وشردوا وتكون بذلك في طول المغرب وعرضه ادب يحق لنا ان نسميه ادب مهجر من بعض نواحيه ولكنه ادب لا كاداب المهاجر العادية وانما هو عاطفة مشخصة تترقرق في الحان القريض وتفيض بالشجن على الفردوس المفقود .

وكانت اسبانيا اذ ذاك منهوكة القوى تكتفي باعادة تنظيم شؤون الاندلس الذي انتزعته من يد العرب ولكن جارتها البرتغال كانت تجول خلال البحار لاغراض استعمارية ما لبثت ان حققتها فاحتلت جزرا في المحيط الهادي وبعض سواحل السودان ثم عرجت في اوائل القرن التاسع على ضفاف المغرب فاخذت تقتص منها ميناء اثر ميناء وامتد اقتطاع البرتغال الاستعماري من المغرب من عام 818 الى عام 920 اي فيما بين انقراض دولة بني وطاس المهزولة وابتهاء ظهور السعديين الذين على يد منصورهم تقوض صرح الدولة البرتغالية فلم ترفع راسها بعد ذلك الى الان .

احتلت البرتغال سنة عام 818 بعد حصار دام ستة اعوام ثم قصر المجاز عام 862 وطنجة عام 869 و اصيلا وانفا وبعض سواحل السوس عام 876 والجديدة عام 907 والعرائش عام 910 وكذلك اكادير وما اتصل بها من سواحل السوس الاقصى وفي عام 912 اسفي وعام 914 ازموور وانتهت سلسلة الاعتداءات البرتغالية على المغرب باحتلال المعمورة (المهدية) عام 920 فلم يبق اذ ذاك في قبضة ملوك المغرب من المراسي سوى سلا والرباط وكانت الازمة قد بلغت عاذاك اشدها في نفوس المغاربة الذين دفعت الفيرة الوطنية منهم العلماء والادباء والشعراء الى ترصيع الخطب ونظم القريض لحض الناس على الجهاد لطرده البرتغال من السواحل وكانت غريبة تلك النفحة التي هبت فوحدت بين كثير من العناصر المتنافرة في سبيل

الدفاع عن كيان البلاد فقد هرع الصوفية من ابراجهم العاجية وهب كبار العلماء والادباء والشعراء لاذكاء روح الوطنية في النفوس في اثار لا يزال بعضها يفيض الى الان عاطفة وحماسا ولكن معظمها عفى عليه الدهر كما عفى على الكثير من تراثنا الفكري ولم يتخلف حتى العامة عن المساهمة في هذه الحملة الوطنية فتضخم بذلك ديوان الملحن الذي كان المغرب حديث العهد به لان هذا الملحن لم يتطور الا بعد نكبة الاندلس على اثر انتقال جماهير سكانها المتشردين الى السواحل الافريقية وانطلاقهم في الانتحاب على معاهدها الدارسة واطيافها الهاجسة . وهكذا كانت المائة التاسعة في المغرب من اخصب العهود في التأليف والنظم ولكنه كان تأليفا ونظما من نوع خاص لا يعدو تحريك العواطف واستنفار الناس الى ساحة العراك بينما كان القرن الثاني عشر اخصب عصر في التصنيف العلمي والتدوين التاريخي .

وقد كان الصوفية في طليعة المنافحين عن كيان الوطن الذي هددته البرتغال وكانت منافحة بالسيف والقلم سبقوا بها ما لا حظناه فيما بعد من غيرة وطنية وتاجج حمية السنوسيين في طرابلس التي افتداها المغاربة من يد الاجانب باموال طائلة لما حال بعد الشقة دون هبوبهم لتحريرها فهذا جد الفاسيين سيدي يوسف - وهو العالم النحرير والصوفي الشهير - يشارك بنفسه في المعركة الكبرى التي هزم فيها المغاربة البرتغال في وادي المخازن وقد كتب ولده عنها في مرآة المحاسن صفحات خالدة رسم فيها صورة عن وطنية المغاربة ومدى استماتتهم في المقاومة وهذا العياشي المجاهد قد اقض مضاجع الاجانب بالمغرب وكتب بسيفه سجلا يطفح بصور البطولة والتفاني في خدمة الوطن ولكم اثار هذا المجاهد من فتاوي ورسائل (انظر المعيار للونشريسي) وخطب لا يزال بعضها منتشرا في كتب التاريخ والتراجم والفقهاء وقد افاد الادب المغربي من هذا الفيض الذي غمر العواطف وانطق الالسنة وحرك الاقلام واسال الشاعريات ولعل من

اروع ما نظم في هذا الباب الملحون الذي نظم منه الشيء الكثير امثال الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن يجيش التازي والشيخ المجاهد محمد بن يحيى البهلولي الذي قرض الى جانب ذلك اشعارا وزجليات تترقرق عاطفة وحماسا قلنا ان الشعور الوطني مستديم الفيض ولكنه لا ينبثق الا عند الازمات ولسنا نقصد بالازمات تلك التي تنكب الامة او طائفة من الامة فحسب بل حتى تلك التي يمتنى بها الافراد فينفون عن بلادهم او تضطربهم الظروف الى مجافاتها على مضض فيطلقون من بعيد اعنة قرائحهم للتغني بمحاسن الوطن النائي وتعداد مزاياه وربما برحت بهم لوعة النوى وحزت نفوسهم عاطفة الحنين فارسلوا من عين هتون دمعا مدرارا لا يلبث ان يجري في جداول الشعر رقيقا مؤثرا .

ولنا في المغرب الوان من هذين الصنفين في الشعر الوطني ونحن اذا اطلقنا لفظة (المغرب) في ذلك العصر فانما نقصد مجموع الاقطار المغربية التي ظلت عشرات العقود من السنين منضوية تحت لواء المرابطين ثم الموحيدين ثم فريق من ملوك بني مرين فهي تشمل اصطلاحا الاندلس وتلمسان بل حتى المغرب الاوسط وافريقية التي لم يكن ملوكها الحفصيون الا شعبة من السلسلة الموحدية اما الصنف الاول فهو شعر نظمه المغاربة الاقحاح او المغاربة الاندلسيون بعد نكبات الاندلس الجزئية التي استمرت من عصر احتلال المرابطين ثم الموحيدين للفردوس المفقود الى ان وقع الجلاء الاكبر عنه اي طيلة ثلاثة قرون تقريبا ومعلوم ان الاسبان بدأوا ينتزعون المدن الاندلسية من ايدي العرب قبل العصر المرابطي ولكن (تأخر انحلال الاندلس بواسطة المرابطين ثم بواسطة الموحيدين نحو من ثلاثمائة سنة) على حد تعبير الامير شكيب ارسلان في حله (ج اص 447) .

وكان نحيب الشعراء ينسكب في مرثي محزنة كلما استولى العدو على مغنى من مغاني الاندلس او مربع من مربعه ولعل من اشد القصائد تائيرا

تلك التي نظمها شاعر مغربي او اندلسي مجهول لم يعثر على اسمه حتى
الآن لما فيها من المعاني الجريئة وقوة الحماس ومرارة الواقع وقد قيلت
بعد سقوط طليطلة منها :

لثلك كيف تبتسم الثغور سرورا بعد ما يئست ثغور
لقد خضعت رقابكن غلبا وزال عتوها ومضى النفور

الى ان قال :

ولا تهنوا وسلوا كل غضب تهاب مضاربا منه النحور
وموتوا كلكم فالموت اولى بكم من ان تجاروا او تجوروا
اصبر بعد سبي وامتحان يلام عليهما القلب الصبور
كفى حزنا بان الناس قالوا الى اين التحول والمسير ؟
انترك دورنا ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دور ؟
رضوا بالرق يا لله ماذا وما اشار به مشير

وقد كان لامثال هذه الحماسيات اثر بليغ حيث اذكت نفوس الجماهير
والهبت احساسهم واهابت بالملوك لنجدة الاندلس المهدد حتى قال ابن
الخطيب موجها مديحه لسلطان المغرب ابي عنان المريني :

والناس طرا بارض اندلس لولاك ما وطنوا ولا عمروا
وجملة الامر انه وطن في غير عليك ما له وطر

وقد عاوى ملوك المغرب لاجئي الاندلس ومهدوا لهم سبل الحياة
الناعمة حتى قال ابن زمرك متشكرا للسلطان ابي سالم المريني :

كم من طريد نازح قدفت به ايدي النوى في الفقر رهن سفار
بلغته ما شاء من اماله فسلا عن الاوطان بالاوطار
صيرت بالاحسان دارك داره متعت بالحسنى وعقبى الدار

ومدحه ابن الخطيب بقوله ::

ودم والمنى تدني اليك قطيفها ميسر اوطار ممهد اوطان

وكان الشعراء يرسلون زفرات على انتشار عقد الاندلس الذي
ظل منتظما نحو من ثمانية قرون حتى صاح بعضهم حيرة وتحرقا :

كيف السبيل الى احتلال معاهد شب الاعاجم دونها هيجاءها ؟

وقد قال ابوا البقاء صالح بن شريف الرندي :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان في القلب اسلام وايمان

وقال ابو المطرف بن عميرة المخزومي بعد سقوط بلنسية :

يحن وما يجدى عليه حينه الى اربع معروفها متكرر

ملاعب افراس الصبابة والصبأ تروح اليها تارة وتبكر

الى ان قال :

وبالجبل الادنى هناك خطى لنا الى اللهو لا تكبو ولا تتعثر

كذلك الى ان صاح بالقوم صائح وانذر بالبين المشتت منذر

وفرقتهم ايدي سبا واصابهم على غرة منهم قضاء مقدر

وقال الامام السهيلي عند ما خرب العدو مسقط راسه سهيل :

يادار اين البيض والآرام ام اين جيران على كرام

راب المحب من المنازل انه حيا فلم يرجع اليه سلام

وكان ابرز ما يمتدح به الملوك ابائهم وسهرهم الدائب على حفظ كيان الوطن

ولو اداهم ذلك الى تقلد الحسام والاستشهاد فقد قال ابو بكر محمد بن

صاحب الصلاة عند ما قام خطيبا في وفد الاندلس امام الامير عبد المومن

الموحدى :

هم الالى وهبوا للحرب انفسهم وانهبوا ما حدث ايديهم الصفدا

وقال الكفيف وهو من فحول الزجالين بزروهون يمدح السلطان ابا الحسن
المريني بقصيدة ملحون منها :

عسكر فاس المنيرا الفرا وين سارت بوغزايم
وقال ءاخر يمدح السلطان :

اما الجهاد فقد احيى معالمه وقام منه بمفروض ومسنون

واقام مفروض الجهاد بعزيمة تركت بافئدة العداة فلولا
والله ما ادري وقد حضر الوغى احسامه او عزمه مصقولا

حطت البلاد ومن حوته ثغورها وكفى بسعدك حاميا لدمار

وقال :

فما رؤوس الكفر الا حصائد بسيفك سيف الله تجني وتقطف

وقال :

فاق الملوك بسيفه وبسيبه فبمدله وبفضله يتمثل

وقال القائد محمد بن يحي اجانا يخاطب مولاي محمد بن الشريف على

لسان الشيخ بن زيدان :

يا مالكا سعدت به اوطانه فيما مضى وزها به المستقبل

نادى بك النصر العزيز لمغرب ولكم على فاس الجديد الكلكل

فاجابه محمد بن الشريف بقصيدة من انشاد محمد بن سودة الفاسي :

ما من ملك ذاق لذة راحة الا تجلى له الهوان فيسفل

الى ان قال :

وانفض غبار الذل وانفض ثوبه يزداد وجهك بهجة ويهلل

وهي من الشعر الجريء الذي يذكرنا ببعض حماسيات شوقي التي كتبها

حيث كان منفيا في باريس الهب بها شعور مواطنيه .

وقال محمد بن يحي البهلولي يخاطب محمدا بن محمد الشيخ الوطاسي

المعروف بالبرتغالي منتشيا بخمر العراق ضد البرتغاليين الذين اعتدوا على
السواحل المغربية :

قل للامير محمد يا طلعة الهلال
لويلة في السواحل من افضل الليالي

تلك نماذج متنوعة لشكل خاص من شعر (الوطنية المغربية) لا يقتصر
على عصر واحد بل يمثل اصنافا ومظاهر شتى لذلك التنوع من الادب المغربي
المتفجر من ينبوع العاطفة ولن نذهب الى حد وصف هذا الادب بانه ادب
(عاطفي) بالمعنى الجديد لهذه الكلمة لان في شعر الوطنية مزيجا من عناصر
قوية مختلفة يوجد كثير منها في الادب الرومانطيكي (Romantisme)
اي العاطفي او الابداعي (الذي يقابله الادب الكلاسيكي (Classicisme)
او الاتباعي) ولعل ابرز مجالي الوحدة في الادبين هو طغيان الشعور وتدفق
الاحساس وطفوح الخيال وغشيانه لمنافذ العقل بل هناك جامعة اخرى
لا تقل عن ذلك اهمية وهي الارتكاز على الدين والاستمداد من الروح والعزوف
عن كثافة المادة ومعلوم ان الرومانتيسم كان له فضل كبير في احياء ما اندرس
من ذكريات المسيحية وصورها الاولى المثلى ومن ابرز شعراء الرومانتيسم
الوطنيين لامارتين وهو جو على ان هنالك نوابغ اخرين في هذا الادب منهم
فيني وموسى وبلزاك وشومان الالماني (الذي كان يمثل بالاخص الرومانتسم
الموسيقي) وادب الوطنية كذلك يستمد من حرارة الايمان بالمثل العليا
التي هي مثل الدين .

وقبل ان ناتي بنماذج منتقاة من شعر الحنين الى الوطن والتفني بمراحه
والانتحاب على فراقه نبادر فنؤكد ان الشعر المغربي لم يخل من روائع تمثل
تلك (الوطنية العالمية) التي طالما تغنى بها شعراء الغرب وقد انشد
الزبيدي ايام كان بالاندلس :

الفقر في اوطاننا غربة
والارض شيء كلها واحد
والمال في الغربة اوطان
والناس اخوان وجيران

وهذا الفقيه ابراهيم بن مسعود الالبيري يدافع عن طائفة غادرت وطنها
طواعية بقوله :

لله اكياس جفوا اوطانهم فالارض اجمعها لهم اوطان
ولكن لعلنا نكون مقصرين اذا لم نلاحظ ان هنالك فرقاً بين (عالمية)
الوطنيتين لان (العالم) في اصطلاح الكثير من الشعراء لا يعدو اقطار العروبة
وبقاع الاسلام الممتدة في اطراف المعمور وهذه الاقطار يعتبرها المسلمون
اوطاناً ثانية لهم لا يمكن ان يشعر الوارد عليها منهم بغربة او استيحاش غير
ان تلك الاوطان تتفاوت مكانتها في النفوس - رغم وحدة الشعور بالغيرة
عليها والحب لها - تبعاً لسيل الذكريات التي تنبثق في نفس الشاعر عند
استعراضها .

وقد كتب شاعر مغربي الى الملك الكامل بن العادل بن ايوب هذه الابيات :

لئن صدني البحر عن موطني وعيني باشواقها زاهرة
فقد زخرف الله لي مكة بانوار كعبته الزاهرة
وزخرف لي بالنبي يثرباً وبالمك الكامل القاهرة

ولتسمع الى هذه الابيات المؤثرة من شعر ابي فارس عبد العزيز الفشتالي
اذ يقول في قصيدة يمدح بها المنصور :

لقد نفحت من شيخ يثرب نفحة فهاجت مع الاسحار شوقي واحزاني
وفتت منها الشرق في الغرب مسكه سحبت بها في ارض دارين ارداني
واذكرني نجدا وطيب عراره نسيم الصبا من نحو طيبة حياني
واهفو مع الاشواق للوطن الذي به صح لي انسي الهني وسلواني
احن الى تلك المعاهد انها معاهد راحتي وروحي وريحاني
واصبو الى اعلام مكة شائقا اذا لاح برق من شمام وئهلان

ومع هذا فقد كان هناك شعراء يمثلون الوطنية الضيقة في ابعاد حدودها
فهذا الفتح بن خاقان يصف ابن حزم بقوله (ما تكلم تقليدا ولا عدا اختراعا
وتوليدا ما تمت به الا ندلس ان تكون كالعراق ولا حنت الانفس معه الى تلك
الآفاق اقام بوطنه وما برح عن عطنه فلم يشرب ماء الفرات ... الخ)

غير انه رغم توفر عاطفة الوطنية العربية في نفوس الشعراء فانهم يظلون
متحرقين على الوطن الاصلي مسقط الرأس ومرتع الصبا والشباب وهاكم
نماذج لهذا النوع من الادب الوطني قال الشيخ ابن الحسن علي القلصادي
الحيسوبي بعد ان رحل الى الشرق :

وقد ذابت اكبادي عناء وحسرة على بعد اوطاني وفقد احبتي
وقال نور الدين علي بن احمد الحميري المالقي :

يحن الى اوطانه كل مسلم فقدس منها منزل وجناب
فاسعد ايامي اذا قيل هذه منازل من وادي الحمى وقباب

وقال الرئيس ابو عبد الله بن زمرك في النازحين عن الوطن لزيارة اطراف
الوطن العربي :

اجابوا نداء البين طوع غرامهم وقد تبلغ الاوطار فرقة اوطان
وقال ابن الخطيب يتحرق على غرناطة :

بلادي التي فيها عقدت تمائي وجم بها وفري وجل بها شاني
تحدثني عنها الشمال فتثنني وقد عرفت مني شمائل نشوان
وعامل ان لا استفيق من الكرى اذا الحلم اوطاني بها ترب اوطاني

وقال ابن خميس - الذي كان السلطان ابو عنان المريني شديد الاعتناء
بشعره - يتحرق الى مشاهدة مسقط راسه تلمسان :

واني لمشتاق اليها ومنبيء ببعض اشتياقي لو تمكن انباء
احن لها ما اطت النيب حولها وما عاقها عن مورد الماء اظماء

وقال ابن زمرك يصف حالة نفسه :

فحنت الى اوطانها وتسابقت تماود مسراها بها وتواصل

وقال ايضا يحن الى غرناطة :

اعندكم اني بفاس اكابد الشوق والحنين

اذكر اهلي بها وناسي فاليوم في الطول كالسنين

وقال الشيخ الصوفي محمد بن احمد بن الصباغ الجدامي (وله جملة

قصائد رفعها الى المرتضي صاحب مراکش) :

نات بي الاوطان عن حضرة الاحسان

ولا معين

وقال محمد بن يوسف يحن الى تلمسان :

يا حيا المزن حيا من بلاد غرس الحب غرسها في فؤادي

وتعاهد معاهد الانس منها وعهود الصبا بصوب المهاد

ونفح الطيب الذي صنفه المقرئ التلمساني في الشرق مشحون بنفحات

نثرية وشعرية تنبثق من الفاظها حرارة اللوعة وهو الذي يقول (شجون

الحديث الذي جر اليها شوقتي الى معاهدي المغربية التي اكثر البكاء عليها

(النفح ج 3 ص 10) .

وقد لاحظنا وجود نفس النغمة في الادب العاطفي بباقي اقطار الشمال

الافريقي والشرق فهذا ابو الفتح محمد بن عبد السلام المغربي التونسي

نزيرل دمشق الشام يقول :

وتنفيس كرب عن كئيب متيم يحن الى اهل ويصبو لاوطان

الى ان قال يخاطب حضرة تونس :

فلا تحسبو اني تسليت بعدكم بشيء من الدنيا وزخرفها الفاني
ولو لم اسل النفس بالقرب واللقا لادرج جسمي في مقاطع اكفاني

وكان هنالك كثير من الشعراء ينزحون من الوطن الخاص الى الوطن
الثاني ما دام في هذا ما يرضيهم فان ضاقت في وجههم الحياة عادوا الى الاصل
فقد قال الوزير ابو الحسن بن الامام الفرناطي يخاطب حضرة مراکش :
يا حضرة الملك ما اشهاك لي وطنا لولا ضروب بلاء فيك مصبوب

واريد ان اختم هذه العجالة بانموذج بسيط للشعر الوطني الذي تفجرت
ينابيعه على اثر احتلال الاجانب لسواحل المغرب اوائل القرن التاسع فقد قال
محمد بن يحيى البهلولي يخاطب محمد البرتقالي الوطاسي :

ظهر الرمل مرادي والسكر يا كرام
نفسى على الجهاد سلبت والسلام
وله من قصيدة اخرى مطلعها :

قم للجهاد رعاك الله منتهجا نهج الرشاد الى الاقوام لو فهموا
من بعد اندلس ما زال محتدما لو كان يمكنني بالليل احتزم

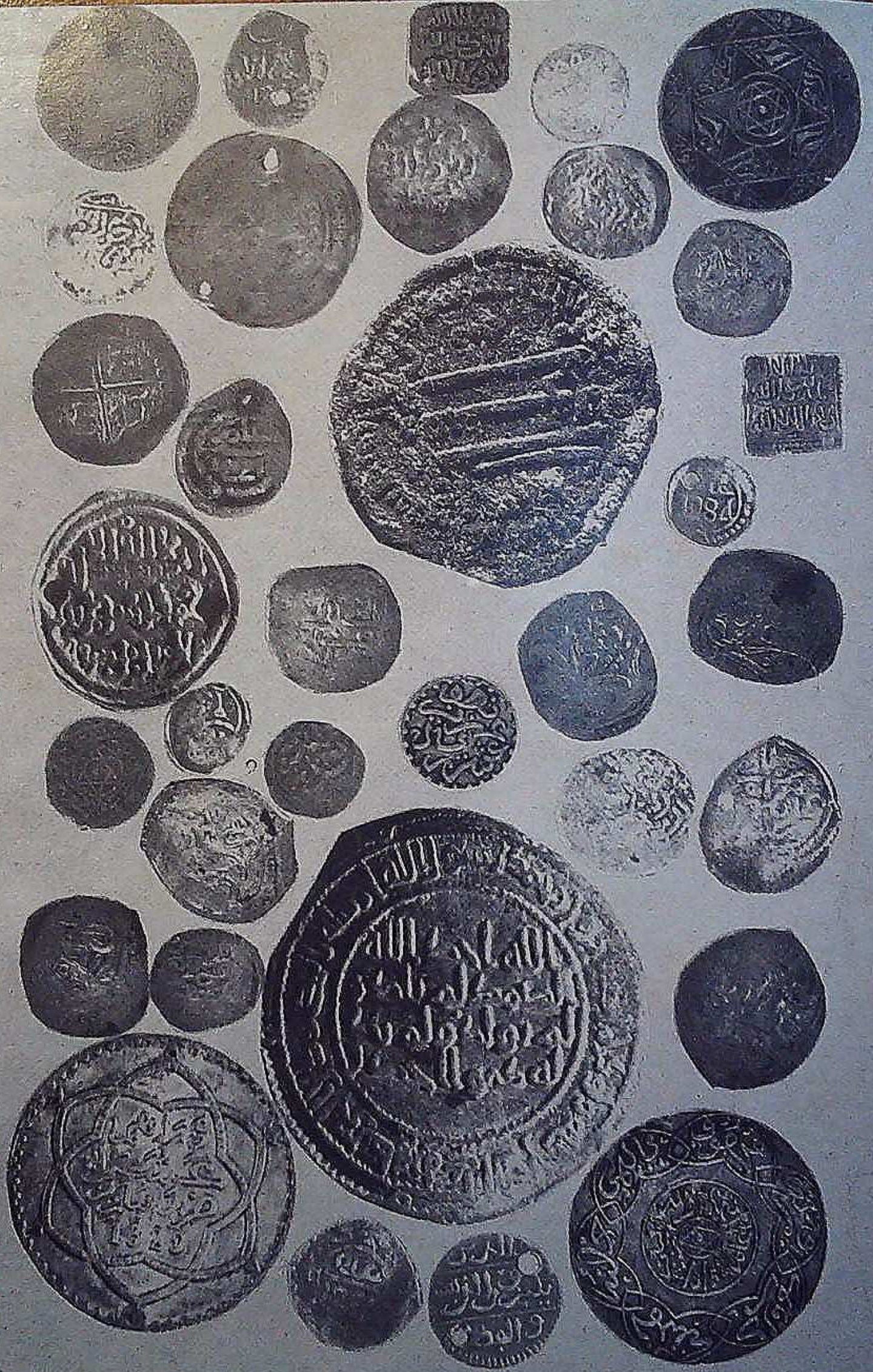
وقال محمد بن احمد الكلاتي يمدح المجاهد سيدي محمد العياشي :
حديث العلا عنكم يسير به الركب وينقله في صحفه الشرق والغرب
وحبكم فرض على كل مسلم تنال به الزلفى من الله والقرب
وقال فيه العلامة سيدي عبد الواحد ابن عاشر صاحب المرشد المعين :

يا حادي الاظفان في الرياشي ابلغ سلامي فخرنا العياشي
طود الهدى عين الندى فرد الورى فريد وقته الامام الخاشي
لله سيف صارم وقاصم ظهر العدا كبيرهم الناشي
يتركهم عند اللقا رهن الشقا صرعى على الارض كما الكباشي

وهو شعر مهلهل ولكنه يفيض ايمانا وعطفا ولعل الادب المغربي من اغنى الآداب العربية في الانتاج (الوطني) العاطفي نظرا لتتابع النكبات على الاندلس التي ظلت ملحقة بحضرتي مراكش وفاس نحو من ثلاثة قرون ونظرا لاحتلال الاجانب للشواطيء المغربية مدة ما ينيف على القرن وما كان لهذا اللون الحماسي من الادب ان تتفق عنه قرائح شعراء الشرق العربي الذي لم تتح له وضعيته ان ينكب مثل المغرب باعداء خصوصيين يناوئونه في دينه وينازعونه في ترائه وقد يكون فيما كتب حول فلسطين خلال الحروب الصليبية وبعد الحروب العالمية الاولى وما نشر وقرض حول الاحتلال الفرنسي لمصر وغير مصر ما يقارب الانتاج المغربي من بعض الوجوه وكانت الصدمة ورد الفعل الوطني قويين جدا لان المغرب ظل منذ فجر الاسلام محتفظا بكيانه واستقلاله ولم يخضع حتى لدار الخلافة العثمانية التي بسطت نفوذها على جل اقطار الشرقين الادنى والاوسط وبقاع شاسعة على طول الضفة الاوربية للبحر المتوسط ولم ينبج من نفوذ آل عثمان حتى المغريبان الاوسط والادنى فكان من الطبيعي ان تتمخض في المغرب على اثر محاولات الاعتداء الاجنبية في القرن التاسع حركة وطنية وطيدة افاد منها تراثنا الفكري كنزا ادبيا يكاد يكون فريدا في بابه .

ولن نختم هذه المجالة دون ان ننوه بظاهرة مثلى تجلت لنا في ابداع صورها وهي ذلك الشعور القوي الذي كان يخامر شعوب العالم الاسلامي بوحدة الاسلام ووحدة الوطن (العربي) فكنا نرى افرادا مفاربة واندلسيين ينزحون عن وطنهم الخاص للالتحاق باوطانهم العربية الثانية كما كان المشاركة يزورون المغرب والاندلس بقصد التجول او الاستيطان فيجد هؤلاء واولئك من سهولة العيش ووفرة المقومات في الوطن الجديد ما يحقق الآمال .

وكان من جملة من رحل الى الشرق من الافارقة الشماليين ابن خلدون الذي تولى منصب القضاء بالقاهرة والقاضي ابو بكر بن العربي المعافري



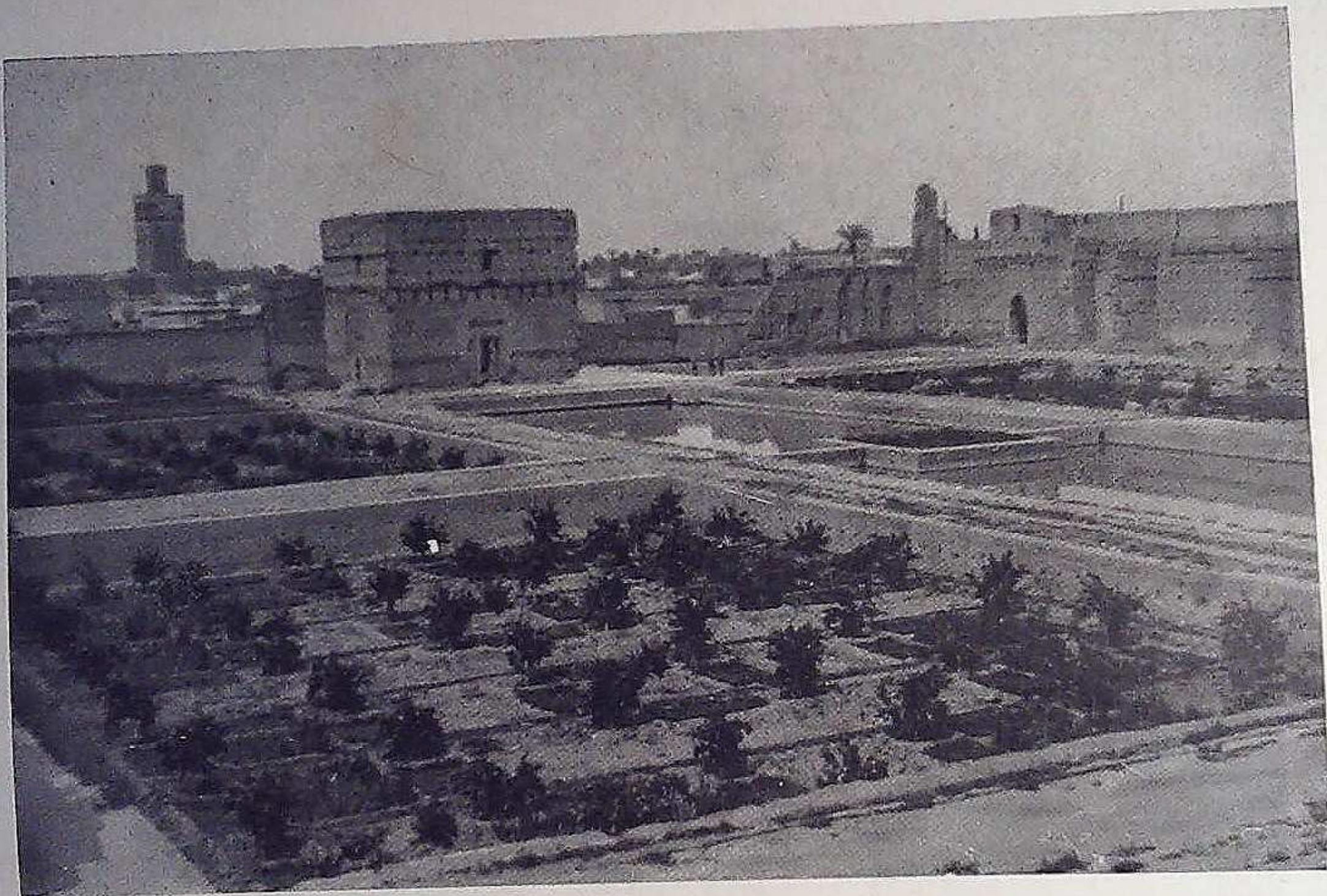
صور نموذجية للنقود المغربية في مختلف العصور ويتجلى الفرق بين نماذج العملة القديمة والحديثة في اندراس معالها وفي شكل النقود القديمة الهندسي من تدوير وتربيع وفي كثرة العبارات التوحيدية .

والحاتمي والمقري والروداني المراكشي كما نزع من المشاركة الى المغرب
علماء افذاذ امثال الحلبي الذي كانت له يد طولى فى الحركة العلمية بفاس .

وكأنى بهذا الشعور لم يستسغه المؤرخون الاوربيون الذين استعصى
فهم هذه الظاهرة الاسلامية على عقولهم ويكفيها ما زعمه المستشرق الاسباني
بونس بواك : (Pons Boigues) فى كتابه (حياة واثار مؤرخي عرب
الاندلس وجغرافيتهم) (Ensayo bio Bibliografico sobre dos His.y géo. ar. es)
حيث اكد (ص 340) معلقا على نزوح ابن الخطيب من الاندلس الى حضرة فاس
بانه (سعى فى خراب وطنه) غير ان مستشرقاً آخر من نفس الجنسية
وهو دو الديكوا : de Aldecoa تصدى للرد على بونس بواك فى بحث
مطول كتبه عن ابن الخطيب فى نشرة (المستندات البربرية) التى يصدرها
معهد الدروس العليا : Archives Berbères : (ج 2 ص 44-87 عام 1917)
حيث قال (وانا اريد ها هنا ان انفى عن ابن الخطيب ما وصمه به بونس بواك
من انه سعى فى خراب وطنه) ثم ذكر ان (من الفلظ استعمال لفظة وطن
بالنسبة للمسلمين فى المدلول الجارى عند الاوربيين فديار الاسلام كلها
للمسلمين وطن فلا يمكن والحالة هذه ان يعتبر المسلمون تنقل ابن الخطيب
من خدمة مملكة اسلامية الى خدمة مملكة اسلامية اخرى جنابة على
الوطن) .

وقد سبق لنا اثبات ابيات من نظم ابن الخطيب تدل على حرارة وطنية
وتشهد بان الوطنية عاطفة ناب ابن الخطيب منها علاوة على القدر المشترك
حظ الموتور الذى زحزح جبراً عن مسقط راسه ومسرح صباه ومعهد انسه
ومالوف منتداه وابعد قهراً عن (مراتب الالباء والاجداد ومنابت الخلان
والانداد) (على حد تعبير ابن الخطيب نفسه) .

وكيف يتهم رجل بنكران حق الوطن وشعره ونشره يفيضان بالحنين
الصادق الى هذا الوطن اليس هو القائل ؟



بقايا قصر البديع بمراكش

(مزق شملي وفرق بيني وبين اهلي وتعدى علي وصرفت وجود المكاييد
الي حتى اخرجت من وطني وبلدي ومالي وولدي ومحل جهادي وحقي الذي
صار لي طوعا عن عاباء واجداد) .

والقائل حيننا الى غرناطة :

بلاد عهدنا في قرارتها الصبا يقل لذاك العهد ان يالف العهدا
وقد قال ايضا :

وطن قد قضينا فيه شبابا لم تدنس منها البرود مدامة
بنت عنه والنفس من اجل من قد خلفته خلاله مفتمة

وقد نظم في توديع ولده لما انصرف عنه الى فاس :

بان يوم الخميس قرة عين حسبي الله اي موقف بين
وطن نازح وشمل شتيت كيف يبقى معذب بين ذين ؟

ولعل اصل هذه التهمة هي الرسالة التي وجهها ابن خاتمة لابن الخطيب
وهي مثبتة في ازهار الرياض (ج 1 ص 265) انبه على هجرانه الاندلس
بقوله متى توازي الاندلس بالمغرب وتعوض عنها الا بمكة ويشرب ؟ ما تحت
اديمها اشلاء اولياء وعباد وما فوقه مرابط جهاد ومعاهد الوية في سبيل
الله ومضارب اوتاد) .

ولكن اولئك المتهمين اغفلوا رد ابن الخطيب على هذه الرسالة في
جواب ورد فيه (واما تفضيله هذا الوطن (اي الاندلس) على غيره ليمن
وعموم خيره وبركة جهاده و عمران رباه ووهاده باشلاء عباد وزهاده حتى
لا يفضل له الا احد الحرمين فحق بريء من المين) .

وقد ظل ابن الخطيب يتحرق حيننا الى غرناطة طيلة مكثه بسلا وشالة
وفاس واعتبرته ازمة قوية تجلى مفعولها النفساني في كل ما كتبه ولم تنقح
غلته العاطفية حتى عاد الى الاندلس الرطيب .

تقاليدنا الدبلوماسية

بعد القرن الخامس الهجري بدأت العلاقات بين افريقيا الشمالية المسلمة واوربا المسيحية في شكل مبادلات تجارية ادت الرغبة في تنظيمها وتوفير ضمانات استمرارها الى التفكير في عقد اتفاقات ويظهر ان المعاهدات لم تكن تعدو في البداية تبادل رسائل او رسل يضطلعون بالمفاوضات فلا يتجاوز الاتفاق في نهاية الامر مرحلته الشفاهية التي كانت تعتبر وحدها اساسا قانونيا يبنى عليه فيما بعد الانجاز والتنفيذ وبدخول المقتضيات الشفوية في حيز التنفيذ تصبح لها بحكم العادة والاطراد صبغة اصطلاحية تتسم بها العلاقات بين البلدين وتجري عليها كقاعدة يعترف بها الطرفان بصورة عملية .

ثم تطورت العلاقات فاضطر الطرفان المتعاقدان الى تبادل وثائق رسمية تحدد فيها شروط التعامل بصورة دقيقة تكفل استمرارا نزيها للتنفيذ .

ومكاتب اوربا مليئة بنصوص هذه المعاهدات التي يرجع اقدم ما عثر عليه منها الى عام 1157 وحدثها الى عام 1509 باستثناء وثائق العصور الحديثة التي اثبت بعضها دوكانستر في مستنداته .

واول من تصدى للكشف عن معاهدات العصور الوسطى ونشرها طرونسي وفلامينيو وبرونيتي (Tronci, Flaminio del Borgo, Brunetti) ثم جاء اماري (Amari) فنشر مجموعة اخرى عام 1763 في مجلد ضخيم يحتوي على 74 وثيقة اصلية منها ثلاث عشرة في نسختين بحيث يبلغ مجموع الوثائق المكتشفة 98 منها 45 محررة باللاتينية او الايطالية و 52 بالعربية غير ان هذه المستندات لا تتعلق فحسب بالمغرب العربي الذي ظل خاضعا لمعظم العصور الوسطى لملوك مراكش بل تخص حتى مصر وسوريا وبعض جزر المتوسط ولكن 41 منها مغربية بالمعنى القديم

لهذه الصفة أي تشمل مقاطعات المتوسط الممتدة من طنجة الى طرابلس الغرب وتحتوي هذه المجموعة علاوة عن 14 معاهدة (مسالمة وتجارة) رسائل وجوازات وتوكيلات ومراسيم ملكية (يخص عدد كبير منها القراصنة المسيحيين) وتعليمات دبلوماسية .

ثم جاء م دوماس لاتري (M. L. De Mas Latrie) فجمع الوثائق الدبلوماسية التي كانت خلال العصور الوسطى اساسا وقاعدة لعلائق المغرب ببعض الأمم اللاتينية مثل بيزة وفلورنسة والبندقية وجنوة الخ .

فاذا حللنا الملابس التي اسفرت عن وثيقة 1157 وهي اقدم ما وقع العثور عليه لاحظنا ان المعاهدة كانت تناقش ثم يقرر (نصها) النهائي شفويا اذ عند ما يتم التوافق على النقط الجوهرية يلخص شفاهيا ويصادق عليها بتشبيك الاصابع او بقسم وتعتبر هذه العملية بمثابة ابرام للمعاهدة ولكن تسلم في الغالب للسفراء رسالة تنص على انعقاد المعاهدة وتلخص كما وقع عام 1157 الضمانات الاساسية المكفولة للمسيحيين كضمان حياة الافراد وحرية معاملاتهم ويكل المتعاقدان الى العادة والسوابق الواقعية تسوية المسائل الثانوية كالتي تتصل مثلا بمقام التجار الاوربيين والجمارك والصفقات المعقودة .

واول معاهدة مكتوبة وجدت يرجع عهدها الى سنة 1174 م ولكن هناك رسالة وجهها اسقف بيزة الى السلطان الموحيدي ابي يوسف الموحيدي عام 1181 تشير الى معاهدة مكتوبة ابرمت مع الخليفة الموحيدي .

اما فيما يخص الشكليات فان عدم الاشارة في صلب المعاهدة الى بعضها مثل حضور الشهود ومصافحات التاكيد وترجمة النص - ليس معناه عدم اجرائها - على ان معاهدات القرن الثاني عشر الميلادي تورد اسماء المفاوضين وتعلن ان الله هو خير ضامن وهو الشهيد الوحيد في امضاء المعاهدة وذلك رغم كون السفراء المفوضين كانوا محاطين في الواقع ب مترجمين وعدول

وكتاب او نساخين وقد تشير المعاهدة احيانا الى تشابك الايدي كعنوان عن ابرام العقد وكذلك الى كون المعاهدة حررت في نسختين اصليتين اما في القرن الثالث عشر (لاسيما في آخره) فان المعاهدات بدأت تشير بوجه عام الى حضور شهود عرب ومسيحيين وتذكر اسم الكاتب والمترجم وما فتئت هذه الشكليات تتطور تدريجيا حتى رايناها تتخذ في القرن الرابع عشر شكل مراسيم ويقع التنصيب في صلب المعاهدة على التسلسل التاريخي للمفاوضات وتحرير الوثائق وهاكم - حسبما رواه لاطرى - صورة عن سير المفاوضة بين السفراء الاوربيين وملوك المغرب كما يتجلى ذلك من خلال المعاهدات نفسها :

ياتي السفير المسيحي الى افريقيا حاملا من اميره رسالة اعتماد تخوله حق التفاوض فيستقبل من طرف ملك المغرب ويرفع اليه تحيات اميره وهداياه ثم يرجو منه ان يحدد له اليوم الذي يمكنه ان يبسط فيه لجلالته بصورة اوسع واتم ما جاء لاجله .

وكان الاستقبال الرسمي يؤجل في الغالب لبضعة ايام يقضيها السفير في زيارة الوزراء والحاشية الملكية وفي اليوم المحدد يقدم السفير نسخة من المعاهدات السابقة او مذكرة تحتوي على بنود مشروع الاتفاق الجديد فضلا فلا ثم يحضر للسلطان تقرير حول هذا المشروع يحال على لجنة لدرس بنوده .

ونظرا لوجود اسارى مسيحيين في المغرب كان السفير يفتنم في الغالب فرصة وجوده بالحضرة السلطانية فيطلب افتكاك بعضهم وكانت الحكومة المغربية تتفضل في الغالب بتلبية رغبته فتبادر بتسهيل افتكاك الاسرى وقد تتحمل هي نفسها تكاليف الفداء ثم تفتح المحادثات فيما بعد وكانت تجري في الغالب بالقصر او في منزل احد كبار الدولة وتنص المعاهدة عادة على

نفس المحل الذي انعقدت فيه الجلسات وابرم فيه العقد وهو اما قاعة الاستقبالات او احد اجنحة الحدائق الملكية او منزل احد الوزراء او احد اعضاء لجنة المفاوضة كمدير الجمارك المغربية

وفي جلسات المفاوضة كان اعضاء الوفدين العربي والاوربي يدلون بنقط ومذكرات اي بسلسلة من البنود تشكل مشروعا تمهيدا يتخذ اساسا للمداولات وعند ما يتم الاتفاق بين الطرفين على اسس المعاهدة الجديدة تحرر نسخة من المشروع باللغة العربية اولا في اغلب الاحيان وبعد تحرير الاصل العربي تنعقد جلسة رسمية لترجمته للغة الاوربية ثم امضاء النسخ وطبعا بالخاتم الملكي .

وكانت هذه المرحلة الاخيرة تجري في ابهة ضمن محفل غفير في نفس المكان الذي انعقدت فيه جلسات المؤتمر ويستدعى عادة للمشاركة في هذا الحفل بجانب المفوضين وترجمانهم وعدولهم وقنصل الدولة المتعاقدة والقناصل الاجانب او بعض اعيان تجار الجاليات الاوربية بالمغرب ورجال الدين المسيحيين القاطنين بالبلدة وبعض الشهود من المواطنين المسلمين وحتى قواد المليشيات المسيحية - المنخرطة في الجيش المغربي - الذين طالما امضوا المعاهدات كشهود .

تلك هي المراحل التي كانت تسبق عادة امضاء المعاهدات بين المفاوضة والاوربيين والتي وقع النص عليها في بروتوكولات الموائيق الدبلوماسية على ان هناك جملة من التقاليد الاستثنائية التي كان المغرب يجريها على بعض الدول دون الاخرى .

كل ذلك يقع اذا ما تم اجراء المفاوضات وتوقيع المعاهدات في المغرب نفسه اما اذا حرر نص المعاهدة في اسبانيا مثلا مع سفير مغربي فان طريقة العمل تختصر وقد علل بعض المؤرخين الغربيين هذا الاقتضاب في الشكليات بوفرة العلاقات بين الاسبان والعرب وانتشار اللغتين العربية والاسبانية بين

الشعبين فإذا ما تم الاتفاق بين السفير ووزراء الأمير الأسباني حول أسس المعاهدة تتكفل الدبلوماسية الأسبانية نفسها بتحرير نسختين للمعاهدة بالأسبانية يكتبان حتما في نفس الوثيقة كل في جهة يفصلهما هامش قد سجلت فيه مستندات أخرى ويوقع الوزير الأسباني باسم أميره على النصين ثم ترسل الوثيقة إلى المغرب ليذيلها السلطان بخاتمه وامضائه فيحتفظ بنسخة ويعيد الأخرى وكانت هذه الطريقة تتبع في المغرب الأدنى أكثر من غيره . وفي بعض الأحيان كان النص الأسباني المزدوج يسجل في نسختين منفصلتين يختمهما الأمير الأسباني بطابعه أولا ثم يوجهان إلى المغرب بعد ذلك لتلقي الختم السلطاني ويتم العقد بتبادل وثيقتين أو رسالتين مختومتين بنفس الطابع فيحتفظ الأمير المسيحي بالنص الذي يحمل طابع السلطان بينما يحتفظ هذا بالنص المختوم من طرف زميله الأسباني .

والمعاهدة المبرمة عام 1274 م بين ملك أرغون جاك الأول وبين يعقوب المريني أنموذج لهذه الطريقة الأخيرة .

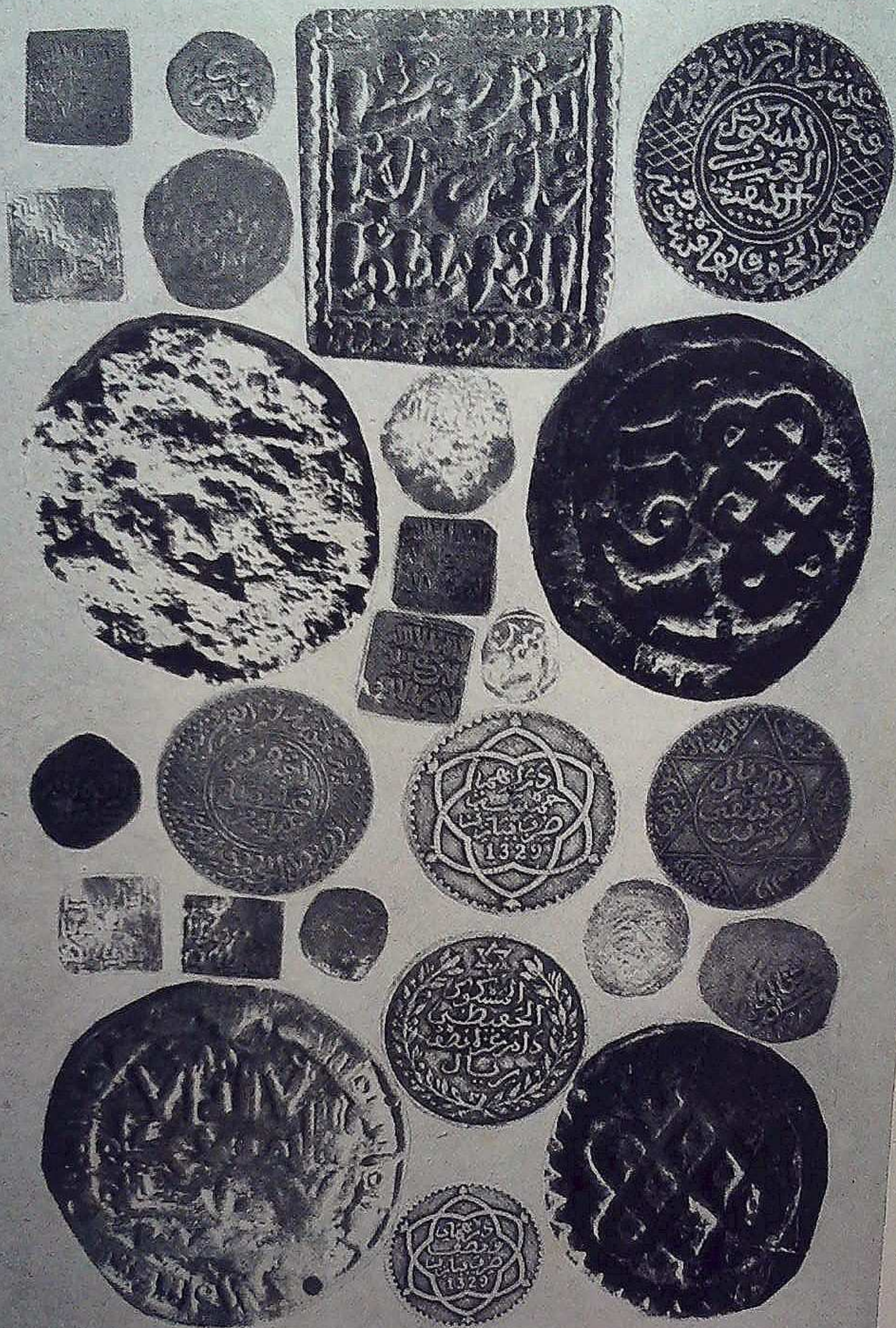
وتوجد نصوص أخرى حررت بطريقة أخرى منها المعاهدة المبرمة بتاريخ 13 أبريل 1339 في تلمسان بين جاك الثاني ملك جزيرة ميورقة وأبي الحسن المريني ملك المغرب وكذلك المعاهدة التي أبرمت بين أبي عنان وأمير أرغونة بطبرس الرابع عام 1357 وكان نص المعاهدة الأولى ما زال محفوظا في مكتبة باريس الملكية أواخر القرن الماضي وتتلخص هذه الطريقة الثالثة في تحرير نص المعاهدة على ورقتين تطويان على طولهما ويسجل النص الأسباني على اليمين بمحضر السفير المغربي ويذيل الأمير الأسباني كلا النصين بخاتمه ثم تسلم الوثيقتان أحدهما إلى السفير المغربي والأخرى إلى مبعوث أسباني يتوجهان معا إلى المغرب لتحرير النص العربي على عمود اليسار ثم تذييله بامضاء السلطان وخاتمه ويعود السفير المسيحي إلى بلده حاملا نص المعاهدة وفي معاهدة تلمسان المحفوظ نصها بباريس كتب النص الأسباني في اليسار وذيل كذلك بامضاءات المتفاوضين والشهود من الطرفين .

وهناك طراز آخر من المعاهدات يحتوي على فصول وبنود (منمرة) ويرجع عهده للقرن الخامس عشر الميلادي غير ان هذا النوع لم يتركز الا في القرن السادس عشر ويقولون بان فصل البنود بعضها عن بعض وترتيبها كان اقل عند المغاربة منه عند الاوربيين ولكنهم يعترفون بانه اقدم عند اولئك (والترقيم) عند المغاربة كان يجري بالحروف لا بالارقام كما يلاحظ في نص معاهدة عام 1358 المبرمة بين المغرب وجمهورية بيزة وقد لاحظوا ان (الترقيم) لم يكن يوجد احيانا في النص العربي .

ويستنتج من مقابلة بعض النصوص العربية للمعاهدات مع النصوص المحررة بالاسبانية او الايطالية او اللاتينية وجود خلاف في كثير من الوجوه قد يشوه احيانا قوام المعاهدة وهذه الملاحظة قد ابداهم مستشرقون امثال ساسي ورينو واماري الذين نبهوا على اغفال النص اللاتيني لبنود بكاملها وتحوير اخرى تحويرا يقلص من مداها هذا علاوة على الاقتضاب والفموض وتحريف الاعلام . ولا شك ان ذلك يقلل من قيمة النصوص كوثائق تاريخية وقد ادلى م. لاطري بامثلة من هذه التحريفات الخطيرة التي مست بجوهر المعاهدة منها ما وقع عام 1398 حيث اضيف الى النص اللاتيني والايطالي للمعاهدة المضادة في تونس فصل لا وجود له في النص العربي الذي يعتبر هو النص الرسمي لانه هو الاصل الذي ترجم منه النص المسيحي ووجه الخطورة في هذا الفصل المزور انه يحمل المسؤولية الجنائية للقناصل عند ما يرتكب مواطنوهم اعتداء ما ضد المغاربة مع ان ملوك المغرب العربي عارضوا دائما مبدأ اتخاذ القناصل رهائن للاقتصاص منهم عند الاقتضاء .

تلك صورة مقتضبة عن الشكليات التي كان العمل جاريا بها في المفاوضات والامضاء على العقود الدبلوماسية .

ونستخلص من هذا العرض ظواهر شتى ابرزها الروح القانونية الدولية التي تشبع بها ملوك المغرب منذ ما يقرب من الف عام ومدى حرص هؤلاء الملوك على ضمان احترام السيادة المغربية حتى في مظاهرها البسيطة وسعيهم الحثيث لتطوير علائق مسالمة مع اكثر ما يمكن من الدول رغم ما كان يسود العصور الوسطى من حروب اساسها اختلاف العقيدة والانانية العنصرية والمطامع المادية .



صور نموذجية للنقود المغربية في مختلف العصور ويتجلى الفرق بين نماذج العملة القديمة والحديثة في اندراس معالمها وفي شكل النقود القديمة الهندسي من تدوير وتربيع وفي كثرة العبارات التوحيدية .



مد من نحاس يعتبر معيارا للمكيال الشرعي يرجع عهده
لاوائل القرن السابع الهجري

سكان المغرب

يتعذر على الباحث ان يرسم صورة كاملة عن عدد سكان المغرب في مختلف مراحل تاريخه ولكن هنالك وثائق كثيرة تعطينا نظرة تقريبية عن عدد هؤلاء السكان في بعض العصور فلنستعرض ما سجلته تلك المستندات ولننقس المجهول بالمعلوم محاولين سد بعض الفراغ في هذه المسألة الشائكة : ذكر عدة مؤرخين عرب ان سكان الرباط في القرن الثالث اي قبل تأسيسها بثلاثة قرون كان ينيف على المائة الف وكانوا كلهم مرابطين لاقرار لهم تأتي افواج وترتحل اخرى في تجدد مطرد وكانت الرباطات في ذلك العهد اهلة بالمجاهدين ومنتشرة على طول الساحل . وقد بلغ عدد سكان مراكش عاصمة المرابطين ايام علي بن تاشفين نحو المائة الف نسمة وانحط هذا الرقم الى ثلاثة عشر الفا ايام الحسن بن محمد الوزان (اوائل القرن العاشر) الذي اثبت الرقمين معا في رحلته .

واذا عرفنا عدد سكان مدينة واحدة امكننا ان نقيس فنستخرج رقما تقريبا لسكان مجموع المدن التي كان عددها ينيف على المائتين هذا علاوة على عدد سكان البادية والجبل ، اما في العهد الموحدى فان رقعة المغرب قد اتسعت فتضخم بذلك عدد الرعايا المقاربة بالنسبة للعصر السالف وقد امكن لعبد المومن بن علي ان يجمع في بسيط سلا وحده ثلاثمائة الف من المجاهدين وفي ايام المرينيين زار المغرب رحالة انجليزي وطاف على مختلف انحاءه فقدر عدد سكان عاصمة فاس وحدها بمليون نسمة وليس هذا الرقم ببذع اذا علمنا ان مدينة فاس كانت اذ ذاك عاصمة المملكة ومهبط رواد العلم والمال والجاه وقد ورد ان عدد سكان عاصمة قرطبة بلغ نصف مليون ايام الناصر بل ان سكان بغداد تجاوزوا مليونين اثنين ايام الرشيد وقد اصبحنا نسمع في السنين الاخيرة ان عدد سكان بعض كبريات العواصم يبلغ العشرة ملايين

او يزيد وقد اورد الحسن بن محمد الوزان في رحلته مجموعة من الارقام جاء فيها ان المجاهدين العرب وحدهم بلغ عددهم في عصره 694 الفا من المشاة و 65.300 من الفرسان وان جنود البربر بلغ عددهم في اثنتين وثلاثين قبيلة 463.600 وكانت هنالك ثلاث واربعون قبيلة اخرى ينوبها من الجنود نحو 622 الفا فيكون المجموع مليوناً وخمسة وثمانين الفا وستمئة جندي .

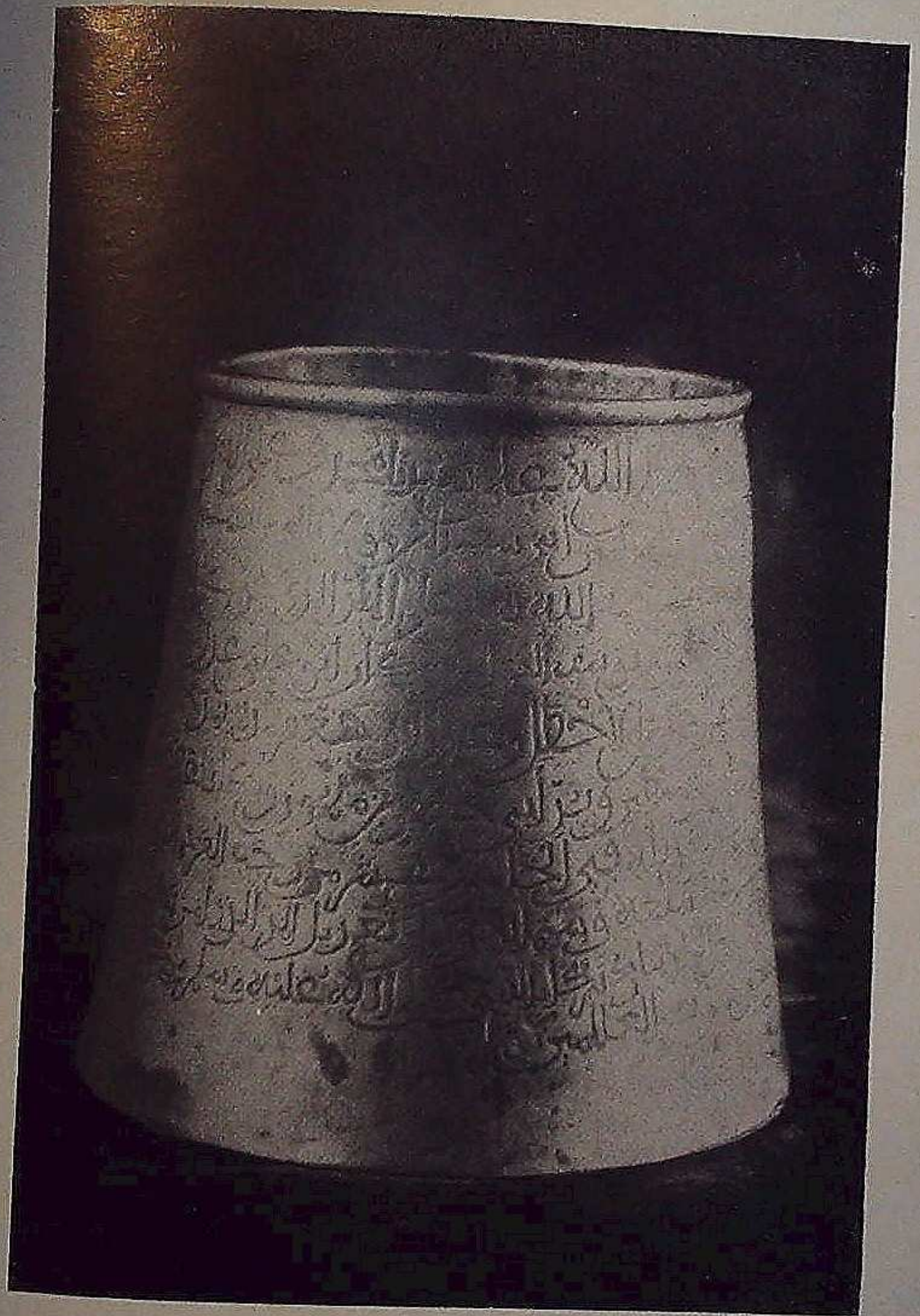
واذا طبقنا نظرية المؤرخ كاريط القائلة بانه اذا ما زيد على عدد الجنود رבעه (الذي يمثل الزمني والمرضى) كان ذلك ثلث مجموع السكان امكننا ان نقدر عدد سكان القبائل العربية في المغرب (اوائل القرن العاشر) بـ 2.850.000 والقبائل البربرية بـ 4.071.000 فيبلغ مجموع عدد سكان البدو ما يناهز سبعة ملايين نسمة . وورد في رسالة كتبها فرنسي من المغرب لاحد مواطنيه ايام المولى اسماعيل ان المغرب كان فيه اذ ذاك 250 مدينة اصغرها لا ينقص عدد سكانه عن ثلاثين الفا وكان بفاس وحدها (ستة عشر مائة الف نسمة) على حد تعبير الراهب أي مليون وستمئة الف من السكان وهذا الرقم يعضده ما نقلناه عن الرحالة الانجليزي اعلاه .

واذا كانت فاس تسع هذا العدد من الناس فان كبريات العواصم الاخرى - لاسيما منها عاصمة المولى اسماعيل ملك ذلك العهد - تؤوي على الاقل مائة الف نسمة على اننا اذا قدرنا معدل سكان المدن المغربية بخمسين الفا للواحدة فان مجموع سكان المدن يبلغ اثني عشر مليوناً ونصف مليون زيادة على المليون والستمائة الف التي بفاس فيكون الجميع نحو الاربعة عشر مليوناً في المراكز الحضرية وحدها فاذا اضعفنا الى ذلك السبعة ملايين من البدو (الذين اثبت وجودهم بالمغرب الحسن بن محمد الوزان قبل هذا العهد بنحو القرن) صار الجميع واحداً وعشرين مليوناً ولاشك ان في هذا الرقم شيئاً من الشطط ولكن ليس هنالك ما يدحضه على اننا اذا

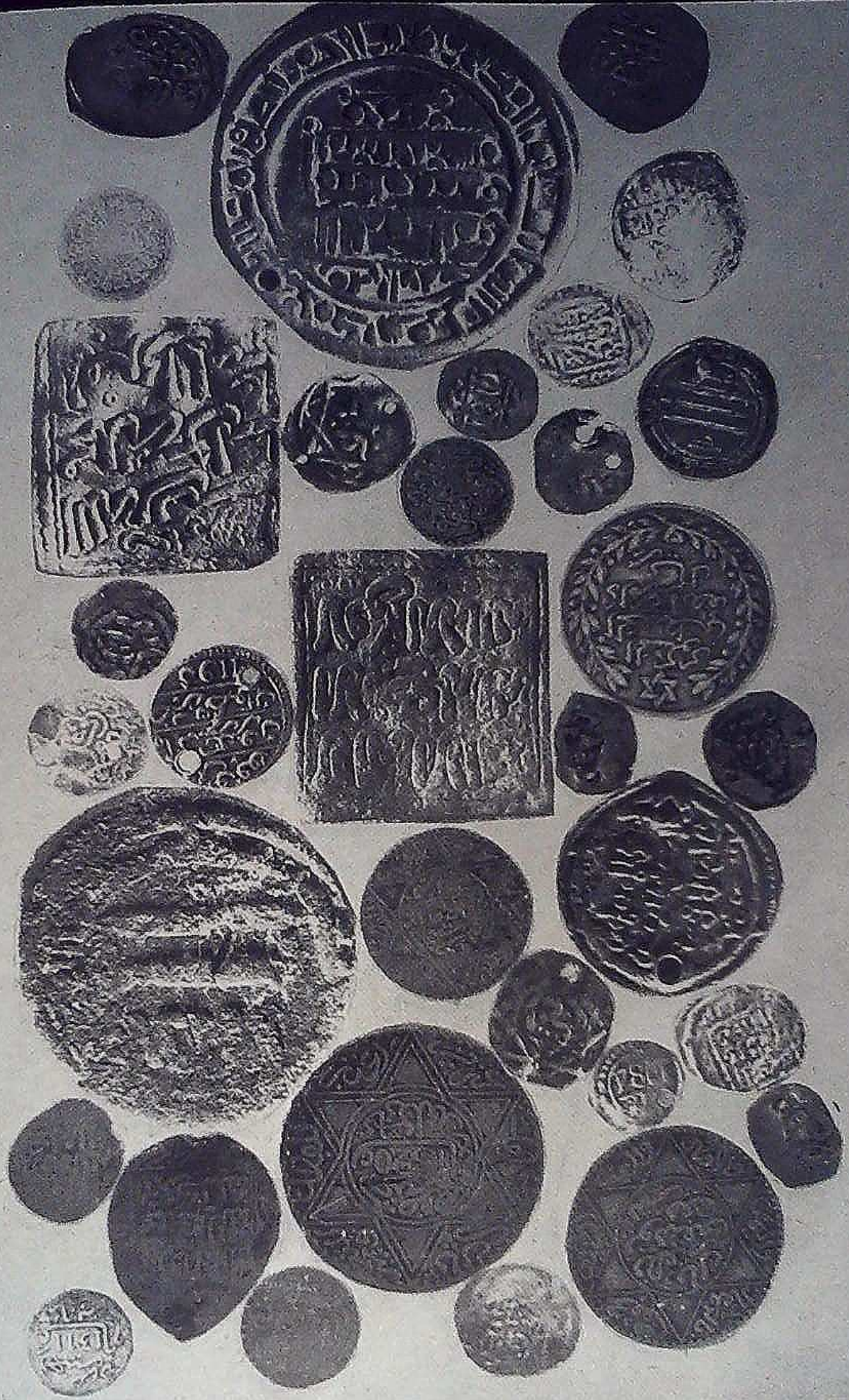
فرضنا ان معدل سكان المدن بلغ 30.000 نسمة فقط بدل 50.000 امكننا ان نصل بمجموع عدد السكان الى ما ينيف على ستة عشر مليون نسمة وهو رقم مقارب لما لوحظ اواخر القرن المنصرم .

وقد ذكر المؤرخ الفرنسي دوفونطان ماكسانج في الكتاب الذي صنفه حول المولى اسماعيل ان الوباء الذي اجتاح اوربا في القرن السابع عشر (اي الحادي عشر الهجري) اخلى مدينة روان الفرنسية ثلاث مرات (1619 - 1623-1667) واستاصل شافة سكان سارلات عام 1634 ورينس عام 1640 وتوالت على باريز خمسة اوبئة في ظرف خمسين عاما اهلك احدها ازيد من اربعين الف نسمة في العاصمة الفرنسية وقد انتشرت عدوى هذا الوباء الوبيل في المغرب ءاتيا من اوربا فبدات بتطاون حيث بلغ عدد ضحاياها - على ما يقال ولعل في ذلك مبالغة - 25 الفا خلال عامين وفي القصر واصيلا 32 الفا وفي مكناس 52 الفا اثناء ثلاثة اعوام وفي فاس خلال نفس المدة 85 الفا وفي سلا في ظرف عامين اثنين 18.000 وازمور ثمانية آلاف وتافيلالت ونواحيها سبعين الفا ولم يهدأ تيار الوباء الا عام 1681 بعد ان قضى في المغرب وحده على نحو الاربعة ملايين ومع ذلك فقد ظل المغرب مائجا بالسكان بالرغم عن هذا الطاعون الذي هبت سمومه من اوربا حيث عجز الطب عن ايقاف تياره وقد انتشر بالمغرب في ذلك العهد من الامراض التي كانت معروفة باوربا كالمرض المسمى بمرض الدنيا والمرض الكبير ومرض النساء وسمى ليون الافريقي هذا المرض بالمرض الاسباني او الفرنسي .

وكان معدل اعمار سكان المغرب يتراوح بين 65 و 70 سنة بل كان يزيد في الجبال الاطلسية (حيث الهواء الطلق) على المائة عام وقد ايد المؤرخ كيون هذا المعدل مستندا الى وثائق يرجع عهدها للعصر الروماني ولا يخفى ان المرابطين والموحدين والمرينيين اهتموا كثيرا بحالة المغرب الصحية فاكثروا من المارستانات وجهزوها بكامل المعدات ووسائل الراحة



مد اثري وهو من القرن السابع



صور نموذجية للنقود المغربية في مختلف العصور ويتجلى الفرق بين نماذج العملة القديمة والحديثة في اندراس معالمها وفي شكل النقود القديمة الهندسي من تدوير وتربيع وفي كثرة العبارات التوحيدية .

وكانت في ارباض عاصمتي فاس ومراكش مراكز لايواء المجذومين كما كان في عاصمة الموحدين مارستان لا يقل في سعة مرافقة وجودة اجهزته واقتدار اطبائه عن كثير من مستشفيات العصر الحديث وقد قام المولى اسماعيل خلال الوباء المذكور بدور خطير في تخفيف لوعة البؤس وتحديد خطر الطاعون الداهم .

على ان من اهم العوامل التي كانت تحفظ التوازن الصحي في البلاد قلة ان لم نقل انعدام الخمور والامراض التناسلية مع تمكن صفة القناعة من معظم السكان لا سيما في البادية والقناعة اخت الحمية والحمية راس الدواء ولكن الدسائس التي بدأ الاجانب يحيكونها بقوة واستمرار خلال القرنين الاخيرين قد اثرت في عوائد البلاد فشاع الترف وانتشرت المواخير في طي الخفاء وكثر البغاء وعمت امراض داخلية لم تكن معروفة من قبل فتضخم عدد الوفيات وتناقص بسبب ذلك عدد السكان حتى بلغ خمسة عشر مليوناً في القرن الماضي - فيما يروى - وهو يبلغ عشرة ملايين الان .

الحالة المدنية

العرب من اشد ان لم نقل اشد الشعوب اعتناء بالانساب وقد انتظمت عندهم هذه الانساب حتى اصبحت المعرفة بها تكون علما له قواعده ونواميسه والمختصون فيه وفي هذا العلم كانت تتجلى مقدرة العرب على الاستدكار والوعي حيث تجد الرجل يعرف عن كل عائلة من قبيلته وحتى عن بعض القبائل الاخرى حلقاتها السلالية بما يتصل بها من اسماء وتواريخ ومميزات . والحالة المدنية تشمل ثلاث مراحل في حياة الفرد فهناك سجل للمواليد وآخر للانكحة وثالث للوفيات فلننظر الى اي حد كان هذا الثالوث محفوظا عند العرب وباية وسيلة حفظ ؟ فهناك قضية لا نشك فيها وهي ان العرب وان لم تكن لهم في الاغلب اساليب عمومية منتظمة لتسجيل الحالة المدنية فقد كانوا يضبطون هذا التسجيل في اطار عائلي مما ساعد رجال التراجم والتاريخ على اثبات كل ما يتصل بعلماء الاسلام وشعرائه وفقهائه وفلاسفته وباقي العظماء من احداث بتواريخها الدقيقة .

ولكن ينسب الى معاوية بن ابي سفيان الذي امتدت في عهده حدود المملكة الاسلامية وغزا بلاد الروم بالف وسبعمائة سفينة - نوع هام من تسجيل الحالة المدنية لا سيما في مصر حيث جعل على كل قبيلة موظفا خاصا يدور كل يوم على مجالس القوم فيسألهم هل ولد لهم مولود وهل نزل بهم طارق فيسجل لفلان غلام ولفلان جارية مع اسميهما وكان هنالك ديوان خاص يرجع اليه اولئك الموظفون الجهويون لتسجيل اسماء المواليد وبهذا كانت الدولة تحصى عدد السكان ولا يفوتها خبر من ينتقل في ارجاء البلاد وكان الى جانب ذلك سجلات للجند بالخصوص .

وهذه الروح المركزية كانت قوية منذ صدر الاسلام فقد ورد في كتاب التاج المنسوب للجاحظ ان عمر كان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته

كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد فلم يكن له في قطر من الإقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش الا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده فكانت الفاظ من المشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح .

وكانت هنالك وسائل رسمية وعائلية لحفظ اركان الحالة المدنية لا سيما قسم الانكحة والوفيات المتصل بالارث فكانت سجلات المحاكم الشرعية لا تزال مرجعا موثوقا به في هذا الباب وكم من سلالات امكن ربط حلقاتها بعد قرون عديدة بمجرد الرجوع الى رسوم عائلية كثيرا ما تنضبط فيها تواريخ الموالد والوفيات وغيرها وكان في العائلات علاوة على رسوم متوارثة ما يسمى بشجرة النسب وكانت العائلات قبل اليوم تعني عناية كبرى بهذه الاشجار فتضبط ما يتفرع عن اصولها على تعاقب الاجيال وما يتصل بهذه الفروع من تواريخ ولكن هذه العناية فترت في القرن الاخير حتى انصرم جبل كثير من السلالات بظهور حلقات مفقودة وتواريخ غير مضبوطة بينما كان يندر في القرون الماضية ان تفلت لاسرة من الاسر حلقة من الحلقات في سلسلتها السلالية وقد استولت علينا في العصور الاخيرة روح لم يكن آباؤنا يانسونها وهي اعتمادنا على الذاكرة واهمالنا التسجيل (وقد يكون لظهور الطباعة اثر في فتور همة التخطيط عندنا) بحيث كثيرا ما اصبحت اهم الاحداث في تاريخنا المعاصر تضيع بالنسبة للدولة وحياتها وبالنسبة لافراد وكانت لنا الى نهاية القرن الماضي كنانيش تسجل فيها حالة الجنود المدنية غير انها لم تكن عامة ولا منتظمة ومع ذلك فقد ظلت روح الاحصاء بشكلياتها المملة متغلغلة في الفكر العربي حيث نجد المؤرخين يدلون بارقام مضبوطة يستندون فيها الى سجلات الدولة او بعض الاحصائيات الفردية فقد احصى في فاس ايام المنصور والناصر الموحدين وكذلك في قرطبة ايام الناصر الاموي عدد الدور والمساجد والحمامات والفنادق والارحاء والمصانع وحتى عدد المصابيح في بعض المساجد وعدد الكتب والمخطوطات في الخزائن المهمة والشواهد على ذلك مختلفة واحصى عدد سكان المغرب في القرن العاشر

في الحواضر واليوادي مع عدد المدن الذي وصل اذ ذاك الى مائتين وخمسين
ويروى ان المولى اسماعيل عمد الى احصاء عدد السكان في بعض النواحي
وهو الذي كان يضبط سجل عناصر جيشه بما يتصل بمراحل حياتها ضمن
الجيش ولكن هذه الروح فترت حتى كادت تتلاشى بالمرّة .

وبالجملة فان حفظ الحالة المدنية كان يجري في الامم العربية غالبا على هامش
الاطار الاداري الذي لم تكن فيه سوى سجلات خاصة بطبقات من الشعب
دون غيرها ومع ذلك فالانساب عند العرب وكذلك مراحل حياة الافراد
كثيرا ما كانت تنضبط بدقة .

دار السلمي

للنشر والتأليف والطبع والتوزيع
طبعت الدار من الكتب المدرسية لحد الآن :

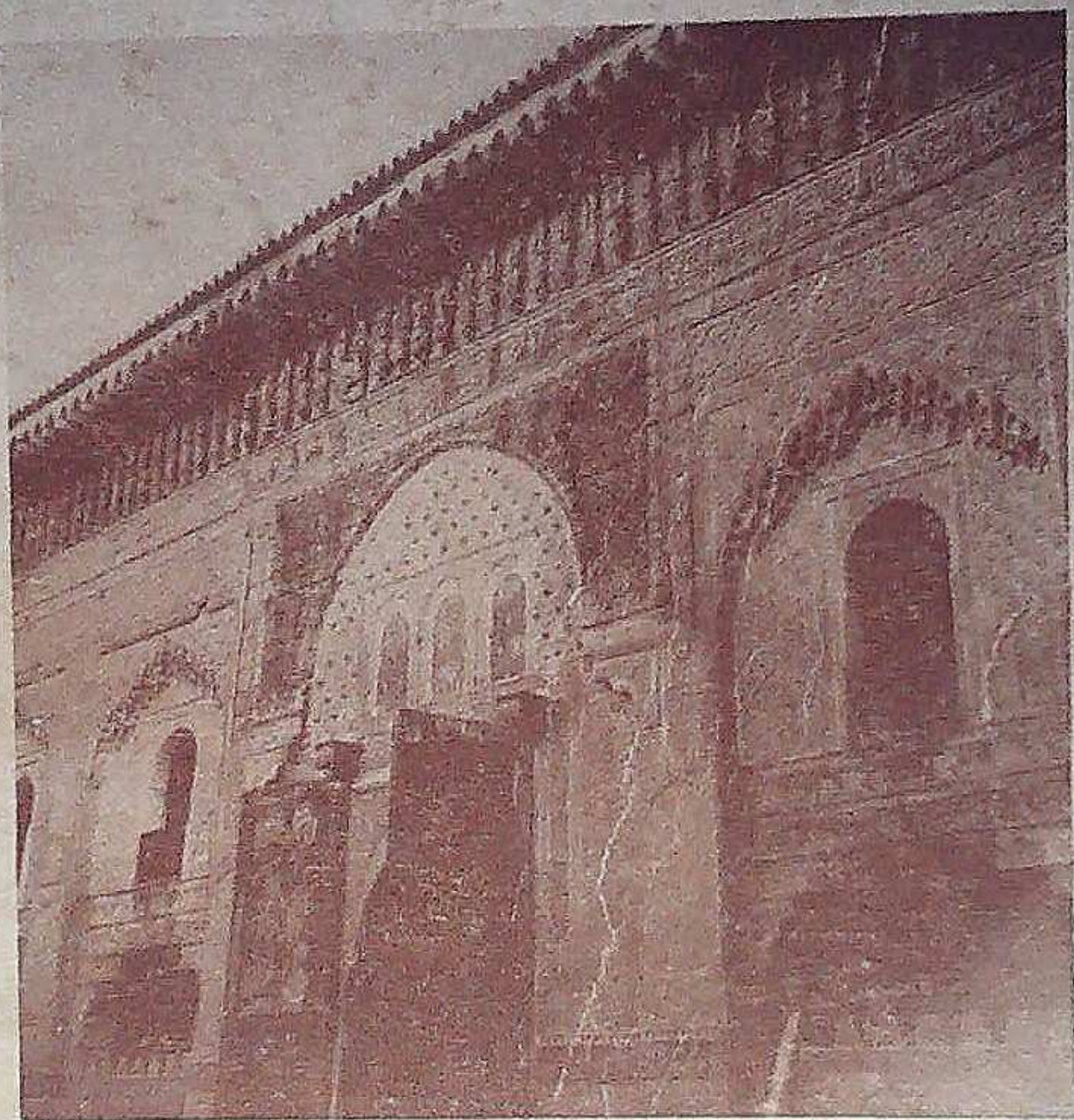
- (1) كتاب الشكل والصرف ، للمتوسطين الاول والثاني
لمؤلفه ابراهيم حركات . والكتاب يصلح استعماله للمدرسين
والتلاميذ على السواء .
 - (2) الاناشيد الوطنية (32 نشيدا) اناشيد حماسية قومية
في التفني بمجد البلاد وعظمتها .
 - (3) الخطب الوطنية للناشئين . خطب تذكى روح الحماس
في الاطفال وتصلح للالقاء في مناسبات مختلفة .
- وبالإضافة الى ذلك تعرض الدار للبيع بالجملة والتفصيل
مجلات شرقية . كتباً مدرسية . قصصاً متنوعة . صور
كناش الجيب وكل ما تحتاج اليه المحكمة الشرعية .
كل هذا يطلب من دار السلمي ومن مكتبة ابن خلدون
رقم 22 زنقة مولاي عبد الرحمن صندوق البريد 4010
- درب سيدنا - الدار البيضاء

نضال ملك

على وشك النفاذ

الكتاب الذي كان يتشوق اليه الجميع وينتظر بزوغه
بفارغ الصبر الكتاب الذي يطلعك على معركة الشعب المغربي
تحت قيادة عاهله العظيم من اجل الاستقلال

فعلى المكاتب والقراء ان يطلبوه من دار السلمي زنقة
الجزولي رقم 38 بدرب السلطان ومكتبة ابن خلدون رقم 22
بدرب السلطان صندوق البريد 4010 اطلبوه قبل نفاذه



الفهرس

الصفحة	الفصل
1	المقدمة
2	شخصية المغرب الجغرافية
4	تطور اسماء افريقيا الشمالية في التاريخ
6	المغرب في فجر التاريخ
9	الحياة الاجتماعية بالمغرب في العصور الاولى
17	عوامل الحياة في الاطلس
23	مدن المغرب في اطوار التاريخ
29	شرقية الحضارة المغربية
37	وحدة الحضارتين المغربية والاندرلسية
42	رسالة الحضارة المغربية في حوض المتوسط
48	المغرب والعالم الغربي
55	اللغة العربية وتأثيرها الحضاري في المغرب
66	انموذج للذاتية العلمية الوطنية
69	العملة المغربية
77	تاريخ النظام الجبائي
82	روح المقاومة في الآداب المغربي
97	تقاليدنا الدبلوماسية
103	سكان المغرب
107	الحالة المدنية

